بعث الانسان العربي الجديد والتزامه

بقلم:
محمد غازي التدمري

الالتزام سمة أساسية من سمات أدبنا العربي المعاصر شعره ونثره، حيث يدرك الاديب مسؤولية الكلمة الهادفة الملتزمة بقضايا الامة والجماهير لمَ لهذه الكلمة من آثار ايجابية في تحريك الجماهير والتصاقها بمبادىء الأمة، وهي تواجه مرحلة تحوّل مصيرية.

والأديب الملتزم يدرك مهمة الادب الحقيقي في النقد البنّاء القائم على المنطق والموازنة العقلية البعيدة عن الهوى الشخصي أو العاطفة الآنية، لأنّ النقد البنّاء هو الذي يسعى الى تغيير الواقع السلبي في المجتمع، وبالتالي فإنّ دوره يبدو بارزاً في تغيير المجتمع والتقدّم به، والتبشير بمستقبل حر كريم، وهذا الالتزام لا يأتي من فراغٍ، وإنما يتبع من مشكلات الأمة العربية وقضاياها المصيرية، فلذلك فهو يلتزم مسائل محدّدة وواضحة، كأن يلتزم العمل من أجلٍ الوحدة التي هي مطلب كلّ إنسان عربي من المحيط الى الخليج، فيكشف اخطار التجزئة والحدود المصطنعة التي أقامها الاستعمار الغربي لخدمة أغراضه الخاصة، فيدعو الى تحطيم هذه الحواجز، وتجاوز القيود المفروضة من اجل تحقيق اهداف الجماهير في الوحدة العربية.

كما يلتزم العمل من اجل الحرية، فيدعو الى تحرير الانسان العربي من الاستغلال الذي استرقّه واضعف قدرته على العطاء والإبداع، فيكافح ليعيش كل عربي حراً كريماً في وطن موحّد لا سيطرة للاستعمار عليه، كما يلتزم العمل على بناء مجتمع عربي اشتراكي، يحرر الإنسان من جميع انواع الظلم والتسلط والاستغلال، تكون الارض فيه للفلاحين، والمعامل للعمال، وحكومة الشعب من جماهيره الكادحة، كما يلتزم العمل على تحرير الارض العربية المغتصبة، فحدد مسيرة الكفاح في مواجهة الاحتلال

واغتصاب الارض.

هذا ما يجعل الالتزام موقفاً حراًومبدأ ثابتاً مؤمناً بالاهداف النضالية للأمة العربية، وليس الزاماً ولا فرضا فوقياً، انه موقف مؤمن بأن الكتابة اختيار حرّ، وهذه الحرية هي التي تسمح للكاتب الملتزم ان يختار موضوعاته، وان يبدع ويجدد، وهي التي تطبع الادب بالاصالة والصدق، ويمتد جسراً بين المبدع والمتلقي، والذي يُثير عقله ووجدانه.

وما دام الادب شكلاً ومضموناً، لا بدّ ان يلتحما في وحدة ابداعية لا تنفصل دون ان يطفىء فيها جانب على آخر، لأن الأديب اذا اهتمّ بالمضمون على حساب الشكل يتحوّل الى واعظ، كما يتحوّل نتاجه الى منشور سياسي، وهتاف حماسي، لا يمت الى الفن بصلة ما، وإن اعتنى بالشكل على حساب المضمون تحوّل أدبه الى تزينات فنية، وتشكيلات لفظية تُفرّغ المضمون من محتواه الأساسي، وهذا ما يفرض على الأديب أن يعمل على التأثر والتأثير بانفعال صادق، لذلك على الأديب ان يكتب بوضوح، وان يبتعد عن الغموض، لانه لا يكتب للنخبة المثقفة، وإنما للجماهير التي تتفاوت درجات ثقافتها وتحصيلها العلمي، على ان الوضوح لايعني الهبوط بالمستوى الفني، بحيث يغدو الأدب إنشائياً سطحياً، ضعيف البناء، ركيك العبارة، فيضعف تأثيره، وتخفّ جاذبيته.

فنتاج الأدباء الملتزمين، هو ما توافرت فيه عناصر الفن من مضمون جاد، وصورة موحية مؤثرة، وانفعال قوي صادق وتعبير فني واضح عن تجربة الجماهير العربية من اجل بناء مجتمع عربي اشتراكي موحد، لان الكلمة الملتزمة بقلم الاديب العربي الملتزم قيمة كبرى لأنها تعبّر عن صدق الانتماء لقضايا الامة ومسؤولية الالتزام بهموم الإنسان العربي وتطلعه لمستقبل جديد.

والالتزام في الادب من ابرز ما اتصف به ادبنا العربي، بعد الحرب الكونية الثانية، التي افرزت معطيات جديدة على الصعيدين الدولي والعربي.

فعلى الصعيد الدولي خرجت الامبراطوريات الاستعمارية منهكة، ونهضت قوى جديدة ساندت حركات التحرر في العالم.

وعلى الصعيد العربي، فقد تحررت معظم الاقطار العربية من الاحتلال والانتداب ونالت استقلالها، وبدأت تقيم وجودها في العالم، ثم زرع الاستعمار بذرة الكيان الصهيوني في قلب الارض العربية لتدميه وتقف عثرة في وجه تقدّمه واستقراره.

وعلى الصعيد الداخلي نهض فرز طبقي واضح، حيث قامت فئة قليلة مستغلة تملك الارض والمعامل ورأس المال، تشتغّل الطبقة الكبيرة الكادحة التي تعمل من اجل قوت عيالها، مما دفع هذه الطبقة المُستَغلة الى معارك ضارية نشبت بينها وبين مستغليها.

والأدب في الأحوال جميعها مرآة حقيقة عكست صور الواقع المعيش، بما يتفاعل على ساحته من أحداث وتطورات عامة او خاصة. كما كان الاديب الملتزم الصوت المعبر بكل صدق عن مضامين هموم الانسان العربي، فالتحم مع الجماهير في وحدة وطنية، وراح يدافع عنها ويناضل معها من أجل تحقيق أهدافها القومية، حيث لا بدّ للأديب الملتزم ان يحوّل شعره الى اغنية تحدو الكفاح الصعب، تأخذ بيد الابطال في هول الصراع، وتبشّر بالنصر القادم مع تباشير الفجر الجديد.

من هذا المنطلق تُصغي آذاننا الى صرخة الشاعر (سليمان العيسى) وهو

يستلهم ربّة الشعر حتى تهبه القوافي المضرّجة بالدماء، والمفجّر، لبراكين الغضب:

هتفتُ بالشعر أستسقيه قافية ... حمراء فانفجرت في أضلعي الحمم

هذه الكلمة البناءة الصارمة، هي التي تدعم موقف الطليعة المكافحة التي تواجه النفي والسجن والموت.

يقول الشاعر (محمد مهدي الجواهري) الذي نذر شعره أغنية تحدو مواكب الكفاح الصعب، محيّياً ذلك الثائر المناضل الذي سلك دروب التضحية المرويّة بالدّم:

سلامٌ على حاقدٍ ثائرٍ ... على لاحبٍ من دمٍ ثائرِ
يخبُّ ويعلَم أنّ الطريـ ... ـق لا بدّ مُفضٍ إلى آخر
كأن بقايا دم السابقيـ ... ـن ماضٍ يُمهّد للحاضر
كأنّ رميمهم أنجمٌ ... تُسدّد من زلَل العاثر

* * *

إن دروب النضال مغضّبة دائماً الى النصر، ودماء الشهداء إرث الماضي العريق الذي يدفع ويُحرّض على مواصلة الكفاح وكأنّ هذه الدماء نبراس يُضيء للأجيال طريق كفاحها، أمّا الأذلاء المتخاذلين، المستسلمين لأوهامهم فلا تحية لهم ولا سلام:

سلامٌ على جاعلين الخنو ... ف جسراً الى الموكب العابر
سلامٌ على نبعة الصامدين ... تعاصَتْ على معول الكاسر
وليس على غُصنٍ ناعمٍ ... رشيقٍ يميل مع الهاصر
سلامٌ على مُثقلٍ بالحديد ... ويشمخ كالقائد الظافر
كأنّ القيود على معصميه ... مفاتيح مستقبلٍ زاهر

إنه التزام الادب الحر بالحرية من اجل بناء مجتمع عربي واحد وموحّد.

لذلك عندما يتحقق حلم الانسان العربي، وينهض اول مشروع وحدوي عربي، ضمّ القطرين العربيين السوري والمصري في وحدة اندماجية كاملة عام (١٩٥٨) كانت فرحة الجماهير لا تحدّ ولا توصف، والشعراء اكثر الناس احساساً بهذاالمنجز العظيم، ولذلك باركوا ولادة الوحدة فالشاعر (سليمان العيسى) يعبّر تعبيراً صادقاً وملتزماً عن فرحته بهذه الوحدة ويقول:

أنا في هدرة المناجر أنسا ... بُ هتافاً ملء الدّجى ودويّا
الأهازيجُ تُرعشُ الأفق حولي ... وتصبُّ الحياة في مسمعيّا
فرحة الضائعين عادوا مع الفجر ... يصوغونه ضحىً أبديّا
فرحة الشعب، شعبنا وهو يطوي ... ظلمات العصور والذلّ طيّا
لا تلمني، فلن أعدُ حياتي ... في دروب الضياع والذلّ شيّا
منذ يومين قد وُجدتُ فعُمري ... يوم أعلنتُ مولدي اليعربيا

* * *

ثم يوضح فضل الوحدة العربية على الانسان والأمة وكيف تجمع المشردين وتلّم المعذبين بالارض ويتعانق الجميع بعد الفراق المرّ تحت راية واحدة اذابت الحواجز، وهدمت الحدود المصطنعة:

وحدة في المساءوالارض منها ... لهبٌ يغسلُ الأذى والدّخيلا
وحدة تجمع المشرّد بالأهـ ... ـل عناقاً بعد الفراق طويلا
وتَلمُّ المعذّبين بأرضي ... موجةً لن تضلَّ بعدُ السبيلا
سلبتنا الدّنيا قناديلنا الزهـ ... ـر فَقُدنا، لغيلها قنديلا

* * *

ويحسّ الشاعر (وصفي قرنفلي) بمرارة الظلم والاستغلال الذي تعيشه الجماهير الكادحة، وهي تقدّم دمها وعرقها للفئة المستغلة من أجل قوت عيالها، فيحرّضها ويدعوها الى التكتل ورفض العبودية والاستغلال:

أيها الشّعب ثُر بجلادك الوغد وهيا بنا نقدُّ الإسارا
أنت دُنيا، إذا تحفزّت مادَت تحتك الارض خشية وانذعارا
سلبونا رغيفنا فطلبناه فكنّا في زعمهم أشرارا
ربّ ضعف اذا تكتل في الافـرا د يرتدُّ عاصفاً جبارا
فتكتّل وانهضْ كما نهضَ السّيلُ وفجّر في شرقنا الإعصارا

ان الخلاص من الظلم والوصول الى التحرر الكامل الذي يساعد على بناء المجتمع الاشتراكي لا يقوم على الجهد الفردي فحسب، وإنّما لا بدّ من تضافر جهود الجماعة وتوحيدها وتنظيمها والسير بها في طريق الخلاص الذي يُشكل الهمّ العام الذي يعيشه الكلّ بإحساس الواحد، والواحد بإحساس الجماعة:

إيه، يا شعب، ثُر بهم لا تُطأطىء بلغ الصبر افقه واستجارا
ثُر بهذا النظام واعصف ببانيه وقوّض من حوله الاسوارا

إنّ الهمّ الاجتماعي الذي تعيشه الطبقة الكبيرة المستغَلة، من قبل الطبقة القليلة الغنية، هو الطاغي على خطاب الشاعر الملتزم، ولذلك فإنّ الامل لن يكون بعيدا عن متناول ايدي هذه الطبقة إن اتحدت وانتظمت في نقابات عمالية، ومنظمات شعبية منظمة تدافع عن حقوقهم المشروعة حين ليس من العدل أن يقضوا عمرهم عبيداً لهذه الطبقة الجشعة، لا سيما وأنّ الدنيا الجديدة المحمولة على أجنحة النظام الاشتراكي الجديد، ستفتح ذراعيها لهذه الطبقة المظلومة وتمضي بها الى فضاء الحرية والكرامة:

لن نكون العبيد إنّ لنا الدنيا سنمضي في شوطها أحرارا

* * *

وهنا يلتقي صوت الشاعر (وصفي قرنفلي) مع خطاب الشاعر السوداني (محمد الفيتوري) الذي يؤكد صيحة الجماهير وانطلاقها في طريق الحر الكريم:

الملايين أفاقت من كراها ما تراها ملأ الافق صداها
فانظر الإصرار في أعينها وصباح البعث يجتاح الجباة

وتتماثل صورة لحياة الجديدة بعد انتصار الثورة في عيني الشاعر العراقي (بدر شاكر السياب) وقد رفل أطفالها بأثواب الفرح والسعادة، اذ نقلت الثورة الكادحين الفقراء من الحياة الضيّقة المتخلّفة التي تعمّها المظالم والاغتصاب والاستغلال، الى الحياة الحرّة الكريمة، التي ضمنت الحق والعدل والمساواة لأبنائها فعمّ الخير والفرح في ارجائها:

«عصافير أم صبية تمرح
أم الماء من صخرة ينضح
علينا لها أنها الباقيه
وبأنّ الدواليب في كل عيد
سترقى بها الريح جذلى تدور
ونرقى بها من ظلام العصور
إلى عالمٍ كلُّ ما فيه نور»

لقد التزم شعراؤنا بقضايا امتهم وشعبهم وناضلوا معه من اجل تحقيق اهدافه في الوحدة والحرية والاشتراكية، فجاء نتاجهم صادقاً واضحاً حياً، توافرت فيه عناصر الفن الرفيع، من خلال مضمون جاد لامس عصب قضايا الامة المصيرية، من خلال التصاق حميمي بالاغلبية الجماهيرية وهي تسعى وتجاهد من اجل بناء مجتمع عربي اشتراكي واحد وموحد.

عضو اتحاد الكتاب العرب
ورئيس تحرير مجلة الموقف الأدبي
شوقي بغدادي:

الإنسان الموهوب يُخلق وغريزة التعبير موزعة بين جوانحه

* ورثنا أغنى وأشمل ثروة في النظام العروضي الذي يعبر عن ذوق جمالي جماعي
* الموسيقى نظام صوتي لا يمكن التعويض عنه بالكلام العادي كما يزعمون
* علينا ان ندرس العروض وأن نولد منها تفعيلات وايقاعات ذات جذور تراثيه
* الشخص المسطح الممسوخ هو الذي يقلد.. الآخرين ولا هوية له!
* لغة الشعر هي لغة الشاعر ولغة القصة لغة المجتمع والبيئة القصصية.

حوار اجراه:
تميم الحكيم

حين تحاور من يملك الموهبة والممارسة والثقافة والفطنة فانك لن تمل الجلوس معه، ولا الاستماع اليه.. ذلك انك تشعر وهو يجيب عن كل سؤال انك تضيف جديدا.. معرفيا يغذي العقل أو ابداعيا ينعش الروح..

ضيفنا كان من أولئك الذين تجد عندهم كل ما أشرت اليه.. فكان هذا الحديث الذي لم اعد له وانما تفتقت اسئلته من خلال الحوار.

نبذة

* باختصار.. هل لنا بالتعرف على ابرز ملامح مسيرة حياة الاديب الاستاذ شوقي بغدادي؟

** في (بانياس) المدينة الجميلة التي تقع على الساحل السوري كانت الولادة عام (١٩٢٨م).. ومنها انتقلت الى دمشق عام (١٩٤٥م) حيث اكملت دراستي في مدارسها وجامعتها حتى حصلت على الليسانس في الادب العربي، والدبلوم في التربية واصول التدريس.

وفي الخمسينات الميلادية عملت مدرساً للغة العربية.. وفيها ايضا ساهمت بتأسيس تجمع ادبي تحت شعار (الأدب الملتزم).. توسعت رقعته في عام (١٩٥٤م) وانضم اليه كتاب عرب منهم عبد الرحمن الشرقاوي ويوسف ادريس وعبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف وغيرهم من ادباء مصر والعراق والاردن وفلسطين.. وكنت

امينا عاما لهذه الرابطة التي عاشت حتى عام (١٩٥٨م)..

ثم كنت عضوا مؤسسا لاتحاد الكتاب العرب في دمشق.. وتقلدت فيه عدة مناصب كان آخرها تكليفي برئاسة تحرير مجلة (الموقف الادبي).

آثار

* وماذا.. عن نتاجك الادبي؟

** منذ الخمسينات بدأت في طباعة ما يجود به قلمي.. ولي الآن عشر مجموعات شعرية، وثلاث مجموعات قصصية، ورواية ومسرحية. اضافة الى بعض الكتب في النقد الادبي والفكري والاجتماعي، منها ما هو لي، ومنها ما هو مشترك مع غيري.

غريزة التعبير

* ايهما تميل اليه اكثر من الوان الادب؟ وايهما ترى انه يعبر عن نفسك اكثر؟

** الانسان الموهوب يخلق وغريزة التعبير الفني تكاد تكون موزعة عنده الى عدة فنون.. فانا أجد قرابة شديدة جدا بين الموسيقى والشعر وبين الرسم والشعر، والحكاية والقصة.. فالفنون بمجموعها ليست لها حدود وانما فيها تداخل.. ولا يمكن ان اقول لك اني اجد نفسي في واحد منها.. فلكل حالة لبوسها.. هنا حالات لا يمكن التعبير عنها الا شعرا.. وهناك حالات لا يمكن التعبير عنها الا بالحكاية فتأتي على شكل قصة.. وهناك حالات لا تروى نفسك الا بالمناقشة والجدل فتأخذ طابع البحث والدراسة.. وهكذا.

الشعر و الموسيقى

* اشرتم الى العلاقة الوطيدة بين الشعر والموسيقى.. هل الجفاء الذي اصاب هذه العلاقة هو الذي افقد الشعر الحديث جمهوره؟

** هذا احد الاسباب الاساسية في اعتقادي.. والعلاقة بين الموسيقى والشعر ليست في شعرنا فحسب وانما هناك نظام موسيقي للشعر عند اليابانيين والصينيين ولكن لا يوجد في تاريخ الامم كلها نظام عروضي موسيقي اغنى وأوسع واشمل من النظام العروضي الذي ورثناه عن اجدادنا القدامى، والذي جاء (الخليل) في فترة زمنية متقدمة فيما بعد فاكتشفه..

وهذا النظام يعبر عن ذوق جماعي وليس ذوق فردي، وهو متوارث عبر الاف السنين، فكيف يمكن لنا ان نلغيه؟!!

ان الموسيقى نظام صوتي لا يمكن التعويض عنه بالكلام العادي كما يزعمون.. فلا وجود لما يسمى بالموسيقى الداخلية.. الموسيقى واحدة خارجية وداخلية.. ولا يوجد نوعان من المسويقى.. هذا تلاعب بالالفاظ.. والعرب اكتشفوا موسيقاهم وقعدوها.. وفي اعتقادي ان اي

شعر حديث يرفض هذا التراث ويقطع صلته معه تماما هو شعر غريب علينا.. وطبيعي ان تقاطعه الجماهير وتنأى عنه.

ونحن لسنا مطالبين طبعا ان نجمد امام ستة عشر بحرا ورثناها مع مشتقاتها.. من الممكن جدا، وهذا ما يصنعه الشعراء المتمرسون، ان ندرس العروض وان نولد منه تفعيلات وايقاعات جديدة، ولكنها ذات جذور تراثية.. وبهذا المعنى لا اعتقد انه من الممكن التعويض من هذه الموسيقى بالتنظير اليها.

ولذلك أنا لا استغرب كثيرا ان نجد الجماهير الواسعة بشكل عام بدأت تبتعد عن الشعر كفن ممتع سواء من حيث حضور الامسيات الشعرية، او من حيث اقتناء الدواوين الشعرية التي نجدها مكدسة في المكتبات لا يقترب منها احد الا الاسماء المشهورة طبعا، وهي قليلة في عالمنا العربي.

الشعر والقصة

* وماذا عن العلاقة بين الشعر والقصة؟

** العلاقة بين كل الفنون قائمة.. ولكن هناك وهما في اعتقادي ـ بشكل خطرا على القصة وعلى الشعر، وهو الظن ان تطور القصة يأتي من خلال تغيير اللغة القصصية.. بمعنى ان تأخذ من الشعر لغته الفنية من مجازات واستعارات وكنايات وغيرها، ونستخدمها في الحكاية (القصة).. وهو ما يفعله بعض المحدثين حين يستخدمون لغة المجاز استخداما فائضاً بالحاجة في كتابة القصة.

وهنا تجدر الاشارة الى ما قاله الناقد الروسي (بوختين) وهو ان لغة الشعر هي لغة الشاعر فهي اللغة البكر التي تعبر عن شخص معين.. اما لغة القصة فهي لغة المجتمع ولغة البيئة القصصية.. فلغة القصة لغة لا تعبر بالضرورة عن شخصية الكاتب نفسه وانما تعبر عن البيئة القصصية التي يتحدث عنها.ولهذا السبب يمكن ان نسمح للكاتب القصصي ان ينوع في كتاباته فيكتب احياناً بلغة مجردة واحيانا بلغة مجازية واحيانا بلغة بسيطة، وذلك حسب الموضوع وحسب الموقف نفسه.. فالمواقف الرومانسية والعاطفية تحتاج الى لغة خاصة، والمواقف النضالية والسياسية تحتاج الى لغة.. وهكذا.. وبهذا المعنى اقول ان العلاقة بين الشعر والقصة ممكنة ولكن ليس من خلال استخدام اللغة ولكن من خلال استخدام الموقف.. اي ان هناك موقفا شاعرياً، وليس هناك لغة قصصية شعرية.. وكذلك الامر يمكن للشاعر نفسه ان ينتبه الى رصد الحركات التي يستخدمها عادة القصاص.. وبهذا المعنى فإن الشاعر يستخدم الاسلوب القصصي في العرض بحدود معينة، والقصاص يستخدم المواقف الشاعرية بحدود معينة.وبذلك تصبح القرابة بين الفنين روحية وليست قرابة لغوية..

قصيدة مستغربة

* في ملامح القصيدة العربية الحديثة لون من ملامح الاخر.. هل (الاستغراب) وراء هذه العلة؟

** نحن غربيون في كل شيء حتى في ملابسنا.. وفي طعامنا.. وفي موسيقانا.. وفي طرائق تفكيرنا.

هناك اصالة لا تموت بسهولة.. ولا يمكن ان تموت بهذه السهولة.. ولكنها تبهت وتتحلل وتتفسخ وتتهدد، وهذا واقع..

اذا قلنا يجب أن يكون لكل فرد خصوصيته.. فمحمد يجب ان يكون محمداً.. وخالد يجب ان يكون خالداً.. وعلي يجب ان يكون علياً.. اي ان لكل شخص خصوصيته.. فكيف نطالب الفرد بخصوصيته ونلغي الخصوصية بالنسبة للامة؟! كيف نحقق خصوصيتنا من خلال الذوبان التام في الاخر؟!

الاخر نتحاور معه ونستقي منه ونعطيه ونأخذ .. ولكن يبدو ان الاخر، وبحكم انه الاقوى، قد اصبح مسيطرا وهو الذي يفرض ثقافته واسلوبه.

الخلاص

* كيف نخلص من هذا (الذوبان)؟

** الخروج يكون باعادة ترتيب البيت العربي سياسياً واقتصادياً واجتماعيا وثقافيا.. فالامور لا تنفصل بعضها عن بعض.

دور المثقف

* اذا .. هل فقد المثقف العربي دوره في العالم الجديد.. واصبح امعة يتبع الآخر؟

** دور المثقف ان يعي هذه الاشياء، ان يقاومها.. ان يدافع عن الخصوصية العربية..

يجب ان ننتبه الى خصوصيتنا ولا نخجل من انفسنا.. وانا احيي كل شخص يحاول ان يكون منفرداً بشخصيته.. ليس من قبيل الاعجاب بالذات او الانانية.. لكن تحديدا للهوية.

الشخص المسطح الممسوخ هو الذي لا هوية له وهو الذي يقلد الاخرين بكل شيء.. واذا تكاثر الاشخاص الممسوخون فسوف يصنعون امة ممسوخة يسهل قيادتها والسيطرة عليها.

اعلام الطليعة

* كيف يمكن ان نوظف الاعلام المعاصر لخدمة هذا الهدف؟

** للاسف إعلام الاخر الذي يملكه الاثرياء والاغنياء من الاعداء هو الذي يفرض علينا من خلال القنوات الفضائية وغيرها ما يريد.. ولا سبيل لمواجهته الا بالتكتل ضده واستخدام وسائله.

وانا اقول.. ماالذي يمنع ان تقوم الاندية الادبية بالمملكة بعمل برامج تعبر عن شخصيتنا العربية وتحمل ملامح خصوصيتنا؟!

سعد الله ونوس

إبداعه خبز الحقيقة

بقلم:
أحمد الحاج طاهر
صحافي جزائري مقيم في سوريا

آلمني أن يردد البعض من مدعي الثقافة في الفترة الاخيرة تقولات واهمة مردها خيالات رخيصة تستغرب بصفاء نية مزعوم تلك الضجة الاعلامية الكبيرة التي رافقت وما تزال رحيل الكاتب المسرحي الكبير سعد الله ونوس منكرة عليه ألمعيته الأدبيةّ. ومدعية ان ثمة من ينفخ في شخصيته واهميته في الحياة الثقافية العربية والعالمية بمبالغة مقصودة تحت وطأة جموح عاطفة الصداقة التي كانت تربط الراحل بالكثير من الادباء والمفكرين والمثقفين البارزين في سوريا وعلى مساحة الوطن العربي وما لسطوة الحب المتبادل بين الاصدقاء من تاثير في موضوعية الرأي وصدق الشهادة ، الأمر الذي دفعني الى كتابة هذه السطور ـ لا دفاعاً عن ونوس ـ وهو الذي ليس بحاجة لدفاعي ولشهادتي ـ فالشمس ليست بحاجة الى من يشيد بأهمية ضؤوها وحرارتها في استمرارية الحياة وتدفقها بل دفاعاً عن الحقيقة والصدق مع الذات بعيداً عن تهويمات وتهويلات الحسد والغيرة من رؤية أعمال الاخرين تتكلل بالنجاح وتحتل مكاناً لها في الوجدان والذاكرة.

وأنا لا استغرب ان تصدر مثل هذه الافتراءات عن بعض ضعاف النفوس وهابطي الغايات والاهداف مدفوعين بشعورهم بالنقص، وبذاتهم العاجزة والمتقزمة أمام هامة ونوس الفارعة والشامخة كسنديانة عملاقة لا تهزها ريح مهما بلغ عتيها وقوتها فإنها غير قادرة إلا على انتزاع الاعشاب والاعشاب فقط! فسنديانة ونوس تجذرت في الارض وامتصت نسغ الماضي والتاريخ العربي

العاقل وسقيت بماء الصدق والاخلاص والتفاني والاحتراق لإنارة درب الاخرين فاستحقت ان تدوي شهادة الشاعر محمد مهدي الجواهري شاعر العراق الكبير من أجلها لتخرج من القلب معلنة بصيحة صادقة في الغرفة (٢٠٨) من غرف مشفى الشامي: «أنت خير من يجسد نكران الذات يا سعد الله» فيأتي رجع الصدى «الونوسي» محملاً بنفحات التواضع: «نكران ذاتي أمام ذاتكم لا شيء»[١].

إن هذه الظاهرة ـ ظاهرة افتراء المدعين على المبدعين ـ موجودة منذ قدم الزمان، فللحسد مريديه، وللحقد محبيه منذ اليونان القديمة وسقراط وحتى أيامنا هذه، فالكاتب الروسي الكبير «نيقولاي غوغول» ينقل بحسه الأدبي اللماح هذه الظاهرة في مسرحية له حملت عنوان «بعد عرض مسرحية جديدة». اذ ينقل فيها على لسان «أديب» خرج لتوه من عرض مسرحي قوله للمحيطين به: «صدقوني. أنا أعرف هذا الامر، مسرحية مقززة! مسرحية قذرة! لا يوجد فيها اي شخص حقيقي، الكل كاريكاتور! لا يوجد هذا في الواقع صدقوني لا يوجد وأنا أعرف ذلك أحسن ، أنا نفسي أديب يقولون: حيوية، حدة بصيرة.. ولكن كل ذلك هراء انهم اصحابه لا غير، أصحابه يمتدحونه، اصحابه فقط! سمعت انهم يكادون يرفعونه الى مصاف فونفيزن وكوميدياته، ولكن المسرحية لا تستحق حتى ان تسمى كوميديا، انهامهزلة، مهزلة، وأفشل من مهزلة، أسوأ وأتفه كوميدية لكوتسيبو ـ (كاتب رجعي كانت أعماله الدرامية في روسيا تتسم بالزيف ورومانسية الشخصيات) ـ هي بالقياس إليها مونبلان أمام مرتفعات بولكوفو. سأبرهن على ذلك لهم جميعاً ، أبرهن حسابياً مثل اثنين في اثنين مجرد أن أصدقاءه وأصحابه امتدحوه اكثر من اللازم، والظاهر أنه الآن يعتبر نفسه شكسبير تقريباً، الاصحاب عندنا يمتدحون دائماً، فمثلاً هذا بوشكين أيضاً لأي شيء تتحدث كل روسيا عنه الآن؟

كل ذلك من الاصحاب، هتفوا، وهتفوا وبعد ذلك صارت روسيا كلها تهتف في اثرهم» يعود هذا الكلام لغوغول الى العام /١٨٣١/ وفيه يرصد تلك الظاهرة القميئة والتي كانت سائدة لدى البعض في الحياة الثقافية الروسية وما اشبهه بما يردده بعض «المثقفين» ـ أضعها بين هلالين كما يوضع الحيوان المفترس في قفص ـ اليوم حول سعد الله ونوّس وابداعه وفكره.

إن قراءة متأنية لأعمال ونوس قادرة على دحض كل الادعاءات والتقولات والمهاترات، فلقد أغاظ هؤلاء ما لاقاه أديبنا الراحل من تكريم رسمي وشعبي وذاك الرواج الملفت لابداعاته بين جموع الشعب العربي في الوقت الذي يعاني فيه المسرح الانحسار والازمة وتفوق التفاهات المعلبة والشاشات الملونة ولم يستوقفهم السؤال: لماذا بكت كل تلك الجموع ونوس بعد مماته وهو الذي بكاهم وبكى أوضاعهم في حياته رغم ما يثقل كاهله ويربن على صدره من مرض وصراع وتقهقر؟! لقد كان مسرح ونوس مرآة تعكس هموم الشعب العربي ورغباته في الحرية والانعتاق والتغيير الاجتماعي تعكس أماله وآماله، طموحاته وتطوحاته منذ نكسة حزيران في العام /١٩٦٧/

وحتى يومنا هذا وبقلم جريء لا يعرف المداهنة أو المهادنة ولا يقول الا الحقيقة او يصمت ـ وهو الذي صمت اكثر من عشر سنوات لأنه لم يرد الانغماس في مستنقع الكذب وتمويه الحقائق وحجب شمسها بغربال. في الوقت الذي ركن فيه غيره الى لبس الاقنعة وركوب التيارات السائدة فكان انتاجه الخواء والكلام الذاهب أدراج الرياح.

لقد كان ونوس يحق ذلك النوع من الكتاب والفنانين الذين يصفهم «فلوبير» في رسالة الى الآنسة «دوشانيتي» بقوله: «الفنان في عمله مثل الإله في خليقته لا تدركه الابصار وقادر على كل شيء يجب الشعور به في كل مكان وأن لا يرى في أي مكان .. بالله عليكم ألم يكن ونوس ذلك وأكثر وهو الذي لم يجعله مرضه ـ السرطان ـ يتراجع ليتقوقع على نفسه ويجعل من بيته في مساكن برزة ملاذه الاخير بل كان في كل مكان يتقاسم مع الناس الهموم والمشاكل ولم تكن تدركه الابصار وكان يرى كزرقاء اليمامة في مسرحية «ملحمة السراب» ما لم يراد الاصحاء من المدعين الذين لايرون أبعد من أنوفهم ويعيشون «مائة عام من العزلة» يجترون أوهامهم ويلوكون سرابهم.

كان ونوس كالإله «جانوس» الروماني ملك «لا سيوم» برأس ذو وجهين وجه ينظر للماضي بعبرة وآخر ينظر للمستقبل بتوق وتطلع وامل جلمه وهو المحكوم بالمرض والموت يقول: «إننا محكومون بالأمل وما يحدث لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ» في زمن «راح مُدعَو الثقافة فيه يوقعون ـ وهم المحكومون بالصحة والحياة ـ شهادة وفاة التاريخ ونهايته مستمدين مداد أقلامهم من دواة «فوكوياما» الامريكية المشبوهة الفضة، فبربكم من المريض والسقيم ونوس أم هم؟!

في الكلمة التمهيدية لكلمة يوم المسرح العالمي والتي قرأها العالم كله قبل حوالي سنة ونصف تلك الكلمة التي حض بها الراحل جمهور الثقافة والمسرح في سوريا قال: «ليس المهم أن يعترف بنا الغرب أو أن يتجاهلنا بل المهم و أن نعترف نحن بابداعاتنا ومبدعينا» وكأنه يستشرف ويتوقع ما سيردده البعض من عميان البصر والبصيرة وينبه الى ذلك التسوس الذي يستشري في الحياة الثقافية فيجعلها كعصف ماكول. ولكن يبقى الامر كما يقول «نيقولاي غوغول» في نهاية مسرحيته المذكورة: «إن الدنيا كالدوامة تتقلب فيها الآراء والأقوال دائماً ولكن الزمن يطحن كل شيء الكاذب فيها يتطاير كالقشور وتبقى الحقائق الدامغة كالحبوب الصلبة» ولذلك سيبقى ابداع ونوس واعماله تلك الحبوب الصلبة التي تقدم نفسها طحيناً لخبز الحقيقة وخبز الصدق الذي ستتناوله الجماهير العربية لأجيال وأجيال نضراً، ساخناً مع مطلع كل شمس واشراقة كل صباح وجل الله القائل:

«كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض»(الرعد١٣/١٧/)

(١) حدث اللقاء بين الشاعر الجواهري والمسرحي ونوس في مساء العشرين من تشرين الاول عام ١٩٩٥ في مشفى الشامي وتحديداً في الساعة السادسة والربع كما يذكر «صباح المندلاوي» في مقاله له بعنوان «الغرفة ٢٠٨ حكاية لقاء بين الجواهري وسعد الله ونوس» ـ فنون ـ العدد /٢٩١/ بتاريخ ١٩٩٧/٥/٨ والكلمات ماخوذة من الحوار الذي تم بين الجبلين الشامخين.

مدرسة التحليل النفسي

سيجموند فرويد

بقلم:
فاطمة عابدين

كانت دراسات علم النفس في القرن التاسع عشر عبارة عن قواعد مسطورة كانها نوع من المنطق مرتبة في الكتب لكنها بعيدة عن التطبيق.

ولم تكن هناك وسيلة لمعالجة المرضى النفسيين سوى الإيحاء المركز.. أو التنويم المغناطيسي وقد كشف «فرويد» وكان طبيباً جسمياً من خلال ممارسته للمعالجة بالايحاء المركز.. تلك الراحة الكبرى التي يسببها التحدث مع المريض عندما يروي له ما حدث معه من صدمات واحداث قديمة فيبدو المريض بعد انتهاء حديثه وكأنه شفي تماماً. وعاش فرويد في فيننا ووضع أساس علم النفس الحديث. والحجر الأساسي عنده هو الغريزة الجنسية فبهذه الغريزة يستطيع الفرويديون وهم الكثرة الغالبة بين علماء النفس ان يفسروا كل ظاهرة نفسية.

وقد اتهم «فرويد» في حياته بانه كان مستبداً بتلاميذه وبعدم قبول اي مذهب آخر سوى مذهبه الجنسي.

وعلى هذا كشف «فرويد» ان هنالك ذكريات مؤلمة قد مرت بالفرد فانضغطت في نفسه. وقد يشفى المرء بمجرد ان يخرجها من هذا الكبت ويتاح ان يبوح بها فيرتاح.

ويقول «فرويد» في هذا ان غالبية الامراض النفسية ما هي الا ذكريات مضغوطه نسي المريض احداثها. ويتوقف علاج المريض على اثارة هذه الذكريات من جديد ليبوح بها. وقد اغنى «فرويد» علم النفس ببعض الحقائق الهامة ومنها:

١ ـ ان حياة الطفولة التي يعيشها المرء مع أبويه تبقى ملازمة له طيلة حياته حيث تكمن في كيانه. وهذا يدل على ما للطفولة من آثار هامة في رسم نفسية الطفل وتكوين شخصيته. فالبيت وان كان مجتمعاً صغيراً فان التربية فيه ليست بالامر اليسير.

فصنعة الأبوة تحتاج الى الكثير من الصبر والتضحية والرفق والحزم. والأهم من هذا كله منهم طبيعة الطفل ونفسه

وميوله لكي لا يتخبط الآباء والامهات على غير هدى في تربية الأبناء.

ومن ثم تأتي المدرسة.. والواقع ان دخول المدرسة محطة من المحطات الخالدة في حياة الفرد. ففيها من الواجبات والتكاليف مالم يألفه الطفل في البيت اذ يضطر هنا الى التخلي عن العديد من الميزات التي ينعم بها في البيت.

لذلك اهتمت المدرسة بان تكون بيئة سعيدة تخلو من الشر والجذب والصراع النفسي حتى سن العاشرة

وقال أحد الاعراب:

«ان من يخاطبك الآن هو خلاصة السنوات العشر الأولى من عمري»

٢ ـ اما الحقيقة الثانية ان الطفل عندما يكبر قد تظهر الافكار التي اختفت في طفولته لسبب ما باشكال ملتوية في شبابه وكهولته.

٣ ـ ان اكبر عقدة تؤثر في حياة المرء في المجتمع هي «عقدة اوديب» وهي ان الطفل يحب أمه حباً جنسياً عندما يكون صغيراً.

منشأ العقدة هي اسطورة اغريقية عن شاب عشق أمه فتزوجها وقتل أباه وهو لا يدري. تأكيداً ان الطفل يحب امه فيكره اباه لانه يزاحمه في هذا الحب.

وللطفل في ذلك عاطفتان:

ـ يحب أمه ويغار من أبيه ويكرهه.

ـ يحترم أباه ويخشاه ويحلم ان يغدو عندما يكبر قوياً مثله.

وهذا الموقف عند «فرويد» هو أصل الأخلاق.

وأضاف تلامذة «فرويد» بعده عقداً نفسية جديدة تتحكم بالفرد واعتبرت حافزاً ودافعاً خفياً لاكثر تصرفات الإنسان.

فجاء «أدلر» وهو أحد تلامذة «فرويد» وقال ان عقدة النقص او مركب النقص هو المحرض الاساسي حيث يزعم ان لدى كل انسان نقص معين يلازمه طيلة حياته ويشعر به كأن يكون قصيراً مثلاً: فتكون كل اعمال هذا الفرد ومساعيه لتعويض هذا النقص.. فيمشي منتصب القامة رافعاً رأسه ويسعى للتفوق والتميز عن أقرانه وفي كافة المواضيع تعويضاً عن هذا النقص الذي يشعر به.

وكان «فرويد» يعتقد ان جميع مركباتنا السيئة التي تحدث لنا امراضاً نفسية تعود الى ما لقيناه في طفولتنا من أحداث او معاملات ارغمتنا أو اثارت فينا قلقاً وخوفاً.

وقد تحدث هذه المركبات شذوذات واعوجاجات تعود الى احداث خلقت فينا عاطفة معينة لكننا مع الزمن نسينا الحدث وبقي الأثر العاطفي الذي سببه وهذا يفسر سر انشراحنا لدى رؤية مكان حدثت لنا فيه حادثة سعيدة او قصة سارة وسر حزننا وكآبتنا اذا شاهدنا مكاناً حدثت لنا فيه حادثة مؤلمة.

فلو سمعنا اغنية كنا سعداء عندما سمعناها لأول مرة فإن سماعنا لها اليوم يحدث فينا نفس الأثر من السعادة اذ تدوم العاطفة ويبقى الحدث منسياً. فمن الطبيعي ان ينال عهد الطفولة من جهد علم النفس ونشاطه الشيء الكثير. فنحن ننظر الى الطفل بمنظار الكبار ونحاسبه كما نحاسب الكبار ونطلب اليه ان يرضخ لقواعد وتقاليد نسجتها الانسانية عبر عمرها المديد.

فيغدو الطفل حائراً بين رغباتنا وبين ارضاء رغباته الشخصية ويصاب بالحيرة. وقد تؤدي هذه الحيرة احياناً الى اساليب شاذه من السلوك وهو ما يمكن ان ندعوه «بالطفل المشكل».

أما في سبيل تربية الطفل الجنسية فعلينا ان لا ننتظر حتى البلوغ لنبدأ بهذا التثقيف بل يجب ان نتدرج به منذ الطفولة بقدر ما تتطلبه رغبته في الاستطلاع وما تحتمله قدرته على الفهم فنجيب على اسئلته بصدق وصراحة وبساطة عدم تكلف دون ان نعطي الموضوع اهتماماً زائداً او تبدو علينا امارات الخجل والارتباك. وعلينا ان نبتعد عن التهديد والتخويف.

وهناك اعراض ثلاثة بالنسبة للطفل. ان ظهرت عليه يجب ان نوليها اهتماماً زائداً وهي:

١ ـ اعراض الطفل عن اللعب مع غيره من الصغار.

٢ ـ عجزه عن ان يتخذ صديقاً لنفسه او رفيقاً حميماً.

٣ ـ ميله الى العزلة والانزواء، او الارتباك والحياء الزائد، والخجل الشديد من الناس.

وأول من اطلق تسميات هذه المركبات هو العالم «يونغ» أحد تلامذة «فرويد» وهو أيضاً أول من استعمل التحليل النفسي، فيترك المريض ليتحدث عن نفسه بنفسه فيقول ما يعاني منه منذ الصغر، ويتذكر احداث ماضيه التي نسيها، فضغط هذه الحوادث الى ما تحت الوعي واختفاؤها في العقل الباطن هو الذي شكل الكبت والضغوط النفسية التي قد تولد الانفجار.

والواقع ان هذا الحدث الانفعالي المضغوط قد ينفجر اذا وجد منفذاً.

ويجد المرء منفذاً ومتنفساً في الاحلام حيث تبدو فيها آثار الكبت. لذلك اعتبرت الأحلام من أحد وسائل تشخيص الامراض النفسية ورموزها المتعددة.

وفي الختام .. فإن فرويد وتلاميذه قدموا لعلم النفس الكثير من الحقائق منها:

١ ـ ان اكثر امراض الجسم لها اسباب نفسية

٢ ـ ان الجسم والنفس كيان واحد. فعندما ينفعل الانسان انفعالاً معيناً تجري في جسمه عمليات فيزيولوجية كثيرة التعقيد وتحدث له العديد من الامراض.

٣ ـ ان القلق والتوتر النفسي يحمل المرء على تعاطي ما يخفف عنه هذا القلق وهذا ما يسبب له أمراضاً جسمية.

٤ ـ ان حياتنا ايام الطفولة ليست شيئاً يمكن ان نهمله. والعناية بالطفل هي العناية بالرجل.

٥ ـ ان سلوكنا الارادي ليس الا سلوكاً لا ارادياً بل تتحكم فيه عوامل متعددة وهو حصيلة انفعالات سابقة وقديمة وحديثة. حتى ان البعض يقول ان مسؤولية المجرم هي مسؤولية غير كاملة.

٦ ـ الانسان يصبح انسانياً بالتدريب والتعليم.. فالانسان في اعماقه حيوان جنسي ونشاطاته كلها ذات حافز جنسي.

٧ ـ اننا نفهم من الأحلام اشياء كثيرة من طبيعتنا البشرية. وقد تعيننا على فهم التفكير البدائي للانسان.

وفي الختام..

ان علم النفس قدم للانسانية خيراً كثيراً في سبيل الكشف عن العلل النفسية ومحاولة تلافيها والابتعاد عنها حرصاً على نفوس طبيعية سوية. ومن ثم فإن تقديم العلاج لمن اصيبت نفسه بانحراف معين، او بات مهدداً بمرض نفسي. فقد يكشف العالم النفسي عنه ويعالجه وشفاؤه ممكن دائماً.

ولا بد من التنوية بان المرض النفسي ليس هو المرض العقلي او الجنون. فالمرض النفسي يصيب مجموعة كبيرة من الناس وسهل المعالجة ويمكن لصاحبه ان يعالجه ويشفيه اذا هو اكتشفه. اما المرض العقلي فهو مرض جسمي مثل الصرع والجنون وليس هنا مجال البحث.

ولا يفوتنا ان نؤكد ان النهضات الاجتماعية للشعوب رهن بالصحة النفسية لافرادها ونؤكد ما لمرحلة الطفولة من أثر عميق في مصير الفرد.

فصنعة الأبوة وتربية الاولاد ليست بالامر السهل. وقد ركزت على هذه المرحلة كل الجهود لحمايتها ورعايتها في كثير من الدول الحديثة بعد ان ثبت ان التعبئة القومية السليمة تبدأ من هذه المرحلة وان المجتمع يدين للطفل بكل شيء.

الرافعي

وظاهرة الفقر والغنى

بقلم:

د.عز الدين بوبيش

استاذ بمعهد اللغة العربية وآدابها
جامعة قسنطينة ــ الجزائر ــ

عاش «الرافعي» في المجتمع المصري الذي تصارعت فيه الأحداث وغلب عليه التغيير في مختلف مظاهره ورأى الأحداث وتقلباتها كيف كانت تأخذ أبناء هذا المجتمع بعيداً عن الأصالة العربية لتغلغل الحياة الأوربية فيهم بمحاسنها ومساوئها. ورأى ما حلّ بالفكر والاقتصاد من جراء هذه الأحداث التي أدت الى ظهور طبقتين طبقة الاستقراطيين الحاكمة، وطبقة المعدمين من الفقراء والفلاحين فتنبه لذلك الحال وأيقن من خطورته وأخذ يطلع على النظريات الاقتصادية والتيارات والمذاهب الفكرية المتعلقة بها، حتى يعيد للمجتمع المصري وجهه الصحيح وأصالته ويقيمه على مبادىء إسلامية سامية.

وكانت ظاهرة الفقر والغنى هي أخطر الظواهر البارزة في الحياة الاجتماعية المصرية، وأحد الأسباب الأساسية التي أدت إلى تقسيم الشعب وتفريقه وضعفه، لذلك أولاها «الرافعي» عناية فائقة فصارت جزءاً من إحساسه ينفعل له ويتفاعل معه متاملاً أحوال مجتمعه المتناقضة أخذاً بيد أصحاب الطبقة الفقيرة الى ما يخفف عنهم آلامهم وأشجانهم ويبصر الأغنياء أصحاب الطبقة الأخرى بما غاب عن فهمهم في حكمة الفقر والغنى معا.

وقف «الرافعي» عند كلمتي «الفقر والفقير» يرسم الحد الذي يتعين عنده معنى هاتين الكلمتين، ليتحرى مدلولهما الذي ضل عنه أفراد مجتمعه الذين طالما تخبطوا في خضمه وعانوا من قساوته بسبب أهوال الحرب العالمية الأولى التي استنفدت أرزاقهم وبسبب انصراف الأغنياء بجنونهم عن تقديم المعونة والمؤازرة لهم، فوجد أن الفقر لا يتمكن سوى من اثنين لا خير فيهما، «غني جن من فرط الغنى، وفقير جن من فرط *الفقر*، فالأول لا يعرف هذا الفقر في جنونه لأنه جن بغيره، والثاني لا يعرفه لأنه جن به»(١)، وعدم معرفتهما لذلك هو ما جعل هذا المرض يتسلل في عروق كليهما ويترك الدموع تسيل في حسرة وألم لتستقر عند هذا الشاطىء الذي هو الفقر(٢).

ولم يكن الرافعي ليرنو للفقير بفكره حتى تتمثل أمامه صورته التي أطلت عليه من أوساط مجتمعه. وكان إدراك «الرافعي» للفقر وللفقراء على هذه الصورة الخاطفة دليلاً على انتشارهما في ذلك المجتمع وتشبع أحاسيس «الرافعي» بهما. فالفقر عند «الرافعي» ضربة لازب قد حكم الله به على بعض الناس أو معظمهم في كل المجتمعات، فهو «فصل من كل عمل كالشتاء فصل من كل سنة»[٣]. وهو من بعض أدوات الاختبار في حياة الإنسانية[٤]. وليس عيباً وقوعه. ولكن العيب هو في من يستسلم له من الضعفاء فيجنون به أو في من يغفل عنه من الأغنياء فيصابون به لجنونهم بغيره، فالغني الفقير هو من يشقى بغناه لدرجة الثبوت عليه حتى يقضي على ضميره.

والفقير هو من يشقى بفقره لدرجة الثبوت عليه حتى يقضي على ضميره أيضاً. يقول «الرافعي»: «أفقر الفقراء ليس هو الذي لا يجد غذاء بطنه ولكنه الذي لا يستطيع أن يجد غذاء شعوره، فلا تحسبن أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادة وراحة، لأن لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة، فهو يبتاع لها كل شيء مما تشتهي ولكنه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئاً إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة. والغني الذي يمنع الفقراء ماله قد يزيد فيه ولو حكما بمقدار ما يمنع بضعة دراهم أو بضعة دنانير، ولكنه يزيد ضميره جفاء بالقسوة والغلظة ونسيان الفضيلة، ولا يزال على ذلك حتى يمر به يوم يفقد فيه ضميره كل شعور بالخير فيفقد معه كل شعور بلذة النفس التي هي أقرب المعاني الى معنى السعادة.. ويومئذ لو اشترى كل لذات الدنيا بماله ما زادته إلا ألما من الضجر وضجرا من الألم، لأن فقد قوة من ضميره تقابل القوة التي يفقدها المريض من معدته»[٥]. وعلى هذا يكون هو الآخر فقيراً، ولا فرق بينهما مادام قيد الضمير عندهما قد فك عقاله. «فالفقير الذي يطمح الى الغنى كالغني الذي يطمح الى ما هو أغنى كلاهما فقر وكلاهما طريق الى الجريمة»[٦].

نظر «الرافعي» إلى البائسين فوجدهم يحملون أثقالهم وأثقال غيرهم، يحملون الأمراض التي لا قوام للعالم بها مدة صحة السعداء ويحملون الهموم مدة نعيمهم واغترارهم ويحملون الدموع مدة ضحكهم وافترارهم[٧]، فاندفع يبحث عن العلاج لهذا المرض الاجتماعي الخطير الذي أفقد المجتمع وحدته وتماسكه، فتوصل الى أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا قيمة له ولا منفعة الا حيث يكون شخصه جزءا من هذا المجموع[٨]. «وكل خلل في النظام الاجتماعي فإنما مرده الى طغيان بعض الأفراد وجنوحهم الى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبر والعظمة بحيث توازن المجموع كله أو أكثر المجموع: إن هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالا بالموازنة الاجتماعية لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة في المجموع كالثقل في إحدى كفتي الميزان، إن خف سقطت الكفة الأخرى»[٩]. على أنه يبصر الحقيقة عن معاينة حين يردف قائلاً: «والموازنة الاجتماعية لا تتهيأ إلا إذا تطبعت قوى المجموع فاندفعت في تيار واحد إلى جهة معينة»[١٠]. ومن أجل ذلك اضطر الناس من عهد اجتماعهم، الى ابتداع الوسائل الكفيلة للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع[١١].

وبهذا التعاون الذي سعت كل المجتمعات الى تحقيقه بين أفراد المجتمع الواحد، والى مايمتد الى مختلف افراد المجتمعات الاخرى يتعين مدى قيمة التعاون في الحياة الاجتماعية. ومن هنا كانت دعوة «الرافعي» الملحة الى أن ينتبه الغني الى الفقير ويحذر من إهماله لأن في اهمال الفقير قتلا اجتماعيا[١٢]. يقول «الرافعي»: «يوم يخرج الإيمان من قلوب الأغنياء تخرج أرواح الفقراء من أجسامهم فيموتون من الجوع والعري والمرض وغيرها من أسباب الموت، وكلها مظاهر متعددة لسبب واحد هو في الحقيقة كفر الأغنياء كفرا في الضمير لا كفرا في اللسان»[١٤].

ومن ثم فالفصل بين الغنى والفقر من الامور التي تتعلق بالضمير وحده وهي النتيجة التي انتهى اليها «الرافعي» ولم يجدها في كل ما وقف

عليه من مذاهب وآراء في الاجتماع والاقتصاد الحديث.

فالضمير عند «الرافعي» أبداً هو الذي يحفظ الموازنة والعدل في الاجتماع الإنساني وعليه يقيم أسباب العلاج، لأن «الإنسانية لا ترى في الأرض إلا الضمائر وما هذه الأجسام إلا أدوات صناعية ركبت هذا التركيب لتصلح لحياة الضمير»[١٤]. وفي عظمة بالغة وتذكير أمين يقول: «انظروا في باطن الإنسان بالفضيلة التي هي من نور الله، وبالحقيقة التي هي من نور الطبيعة فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد هو ملء هذه المعدة!»[١٥].

وسبب هذا البلاء الاجتماعي عند «الرافعي» مردّه الى فقدان النظام الاسلامي الذي يدعو الى العدل والإحسان، فلو أحسن الأغنياء في كل الأمم وفقا لما يدعو إليه هذا النظام ما كانت مجتمعاتهم لتعرف هذا الإخلال الاجتماعي الخطير، ولكن كيف ينتشر الإحساس اذا كان الضمير ميتاً وهو كل شيء في الإنسانية.

ليس المجتمع الذي عاش فيه «الرافعي» أول من عرف الفقر والفقراء وليس «الرافعي» أول من كتب في موضوعه، وليس هو وحده من يملك هذا الضمير الذي يبني عليه فكرة الاصلاح بل سبقه الى ذلك العديد من المفكرين والفلاسفة في العصر الحديث لما وقفوا على هذه الظاهرة الخطيرة في مجتمعاتهم، فسعوا إلى اصلاحها بإنشاء نظريات علمية حول «الاشتراكية» التي كانوا يلتمسون فيها خير علاج لمجتمعاتهم.

وقد أشار «الرافعي» الى هذه الاشتراكية العلمية بكلام ينقص من فعاليتها وجدواها فسأله «سلامة موسى» عن اشارته تلك ولكن «الرافعي» أغفل الإجابة عن سؤاله، فذهب «سلامة موسى» يزعم أن «الرافعي» «يعتقد أن الفقر ضربة لازب قد حكم الله به ولا مردّ لحكمه، كأنّه لم يسمع بالاشتراكية في حياته»[١٦]. وهنا أدرك «الرافعي» أن دعوته التي انفرد بها الى تربية الضمير والاعتماد عليه في تقديم العلاج لهذه الظاهرة الاجتماعية لم تلق استيعابا بعد في أوساط بعض معاصريه، فكتب في الرد على «سلامة موسى» يقول: «ينعى علينا أننا نتجاهل الاشتراكية كأننا لم نلم بها، وهو يراها مائدة مدت في الأرض، للناس جميعاً على أننا نراها تلك المائدة بعينها غير أننا نزيد عليه أنها ممدودة للناس جميعاً ليتدافع عنها الناس جميعا فلا يصل اليها أحد»[١٧]. «ونفضل على كل هذه المائدة الخيالية بما حفلت به من لذائذها وألوانها تلك اللقيمات التي يفرضها نظام الزكاة في الاسلام فرضا لا يتم الاسلام لأحد إلا به وعلى هذا فاعتبر»[١٨].

فليس عند «الرافعي» في الوسائل الاجتماعية لكها ما يعدل نظام الزكاة في الاسلام يقول: «فلو أنه أخذ ربع العشر (اثنان ونصف في المائة) من ثروة العالم باجمعه كل سنة وجعل في مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا، ولكن الاشتراكية تحاول محق الربا بمحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها»[١٩].

ولا يستطيع العلم ولا القانون في نظر «الرافعي» حل هذه المشكلة الإنسانية ما دامت من مواد القضاء والقدر في إنشاء الآلام والأحزان وأضدادها التي تقابلها[٢٠].

لذلك فهو يدعو الى الايمان حيث الفضائل الانسانية العليا والأخلاق الثابتة، التي متى تحققت في أبنائها تحقق التوازن الاجتماعي، يقول: «فلا بد للناس من الحدود التي تبني بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جدارا يعطف نفسا على نفس بالرحمة ، ويرد قوة عن قوة بالصبر، ويكف عادية عن عادية بالتقوى، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب في الجماعات المتصادمة ليقر كل مضطرب في حيز إن لم يمسكه فيثبت فيه لم يفلته فيعدو على سواه»[٢١].

ومن هذه النتائج التي ينتهي اليها في كل مرة يلتفت الى ناحية المدنية ليلتمس لها العلاج قبل الانهيار، يقول: «اذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود وتركت قوة الإيجاب في طبيعة الحياة

بغير قوة سلبية من الريمان في طبيعة النفس كشف للإنسان عيوبه بلاغة من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه»[22]

وللخلاص من هذه الهوة السحيقة في الحياة الاجتماعية يؤكد «الرافعي» على صفاء القلب وتحرك الضمير اذ هذا الأخير كفيل بإخراج الفقير من أزمته، وبإصلاح نظرة الغني وبالتالي ضمان التوازن في المعيشة بين الأفراد والجماعات.

وقد كان «الرفاعي» أقوى من معاصريه ثورة على الواقع الاجتماعي الأليم وأدقهم تعبيراً عن أنات الشعب، تحدث عن آلام الإنسانية وفلسفتها فأشفق على البائسين وواسى كل المعذبين يقول: «وما إن لقيت باكيا إلا رأيت وجهه مقبلا علي يسألني: ترى من أين يذبح الإنسان اذا كانت دموعه هي دماء روحه؟ ذلك لأن الدموع لم تعد على طبيعتها دموعا، بل هي علامات الألم أو السخط. الألم من المخلوق والسخط على الخالق، فهي ألفاظ من لغة العجز قد تكون أفصح منها في الأداء كلمات السفاه والغيظ والحنق وما إليها»[33].

على أن «الرافعي» في حلوله لمشكلة الغنى والفقر يبقى في مضمار الناحية الأخلاقية والقيم المثالية والمبادىء الإسلامية السامية، دون أن يتعرض للنظريات العلمية والمشاريع العملية أو التيارات الفكرية التي تحاول أن تجد لهذه المشكلة مخرجا، وإذا ما تكلم عن الاشتراكية كان جوابه عنها ككلامه عن الضمير يغطى بالأسلوب الأدبي والمخارج البلاغية والصور التي يمليها الأدب أكثر من أن تكون معالجة علمية تستجيب لنظريات العلم والعصر. ومع هذا يبقى «الرافعي» أديبا حساسا وإنسانا مرهفا ومسلما حقا، أكثر منه عالم اجتماع.

و«للرافعي» قصص طريفة في تصوير حال المساكين، وتحليل المعاني الإنسانية فيهم نقف بإيجاز عند بعضها في مقالاته التالية: «حديث قطين»، «الطفلولتان»، «أحلام في الشارع»، «أحلام في القصر»، «بنت الباشا».

ففي مقال «حديث قطين»[24] يصور «الرافعي» معركة بين قط سمين وهو رمز للغني، وبين قط هزيل وهو رمز للفقير يدري الرافعي حواراً بينهما يكفش من خلاله أن نحول الجسم عند الفقير يعني الخفة والقدرة على تحدي متاعب الحياة، ومشقات الحصول على الرزق. والسمن عند الغني يعني الثقل والتواكل والعجز عن مواجهة أدنى مشقات الحياة.

وفي مقال «الطفولتان»[25] يزيد «الرافعي» توضيحا لفكرة الفقر والغنى بالحوار الذي يجريه بين ابن مدير غني وبين مجموعة من صعاليك الصبية. ويختم «الرافعي» هذا المقال بقوله: «وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة، فليس غني بطل الحرب في المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه»[26].

وفي مقال «أحلام في الشارع»[27] يصف «الرافعي» طفلين أخوين ولدا وبنتا فقيرين ينامان ليلهما على عتبة المصرف فيقارن بينهما وبين أطفال الأغنياء بالحوار الذي يجريه على لسان الولد وأخته. ومن بين ما أورده «الرافعي» من كلام على لسان الولد الفقير قوله: «كل شيء أراه لا أراه إلا على الغلط كأن الدنيا منقلبة أو مبدرة ادبارها، وما قط رأيت الأمور في بلادنا جارية على مجاريها، فهؤلاء الحكام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحي الفقراء، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحموا الأمور العظيمة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس وخلق ودين ورحمة، فإنه لا ينهزم في معركة الحوادث الا روح النعمة من أهل النعمة وأخلاق اللين في أهل اللين، وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية في كل حادثة سياسية.

إن للحكم لحما ودما هو لحم الحاكم ودمه، فإن كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك، وإلاَّ قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعا، وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم همّ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم، إن السلطة درجة فوق الغنى، ومن نال هذه

استشرف لتلك، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلق الظالم الذي يصور الاعتداء قوة وسطوة وعلواً من حيث عدموا الخُلق الرحيم الذي يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة إن أحدهم إذ حكم وتسلط أراد أن يضرب، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا في المبدأ الاجتماعي للأمة أو في الأصل الأدبي للإنسانية»[٢٨].

فهذا النص نقد للحياة الاجتماعية في مصر وتأكيد على مافي المجتمع من طبقة منشأها الابتعاد عن الدين والخلق كما يؤكد أن الفقر يولّد الرحمة، والغنى يولّد الظلم ولذلك فهو يفضل أن يكون الحكام من أولاد الفقراء، ولكن ألا يمكن أن ينقلب هؤلاء الأولاد عن أصولهم الفقيرة فيصبحوا ظالمين؟ هذا مالا يجيبنا عنه «الرافعي» في مقاله هذا!

وفي مقال «أحلام في قصر» يؤكد «الرافعي» أن الجاه والنعمة والغنى لن تدوم لصاحبها الا الى حين، وأنهما مهما طالت معه لن تنتقل معه الى قبره.

وفي مقال «بنت الباشا»[٣٠] يقف «الرافعي» عند ظاهرة الألقاب التي تفشت في مجتمعه مثل «باشا»، «بك»، «أفندي»، .. ليقرّ أن هذا التقسيم نابع من غفلة الناس عن الدين وما جاء به الإسلام.

فبنت الباشا فتاة غنية زوجها أبوها من صاحب لقب وجاه ومال، ولكن هذا الزوج لم يستطع أن ينجب لها الطفل الذي يشبع فيها الأمومة، فعاشت حياة تعيسة، وتشاء الأقدار أن تتعلم «بنت الباشا» أن السعادة التي تتمناها توجد في كوخ زبال يقع في خربة بجوار القصر الذي تسكنه، كانت تنظر من هذا القصر فتُبصر «الزبال» فرحاً بأولاده الثلاثة راضيا بحياته سعيدا بخلو قلبه من هموم الألقاب والأموال..

وقد استطاع «الرافعي» من خلال هذا المقال أن يكذّب هذه الفروق الاجتماعية، وأن يبرز امكانية زواج رجل فقير من امرأة موسرة، أو بين صاحب لقب ومحروم منه. ويؤكد «الرافعي» أن هذه الفروق اخترعها الإنسان في حالة من حالات تجبره وتعاليه يقول: «إن كلمة «باشا» وأمثالها إنما تخلفت عن ذلك المذهب القديم: مذهب الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعون وأمثاله ليتعبدوا الناس منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة، فإذا قيل «إله» كان جواب القلب: «عز وجل»، «سبحانه»...

ولما ارتقى الناس عن عبادة الناس، تلطفت تلك الألوهية ونزلت درجات إنسانية لتتعبد الناس بألفاظ عقولهم الساذجة فإن قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير: «سعادة تلو أفندم»»[٣١].وهذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى امرها الى سقوط الأعلى والأسفل»[٣٢].

وهذا الاستغلال والاستبداد من قبل الطغاة، لأولئك المساكين لم يسكت عنه «الرافعي» أيضاً فقد صاح في وجوههم يقول: «ومن الذي ينكر أن استبداد الملوك الطغاة، وما إليه من استرقاق الشعوب وتعبد الضعفاء وظلم المساكين إنما هي أحلام مزعجة من أحلام الإنسانية المستيقظة.. أنظر.. أترى ثمة شعبا مستعبدا يجتمع كما تتراكم الأنقاض ويتفرق كما تتبدد وليس منه في الاجتماع والتفرق إلا صورتان للخراب.. إنك لتنظر الشعب الذي يحمل وهو مستيقظ، ألا تراه يعمل على السخرة ويُطيع بالإرادة أو بالوهم الذي صار له كالإرادة، ويشك في أنه يخاف من المستبد أو يخاف من أن يشك فيه، ويرجو على قوته ما يرجوه الأجير أن يملك يده ساعة ليتناول بها لُقيمات يقُمن صله وينتهي عمل يومه ليوقن أنه إنسان كالناس له يد يملكها»[٣٣].

فكثيراً ما تألم «الرافعي» لهذه الحالة الاجتماعية التي كانت تعاني منها الأمة أنذاك، من الاستبداد والاحتلال والضياع. ومثلما لم يغفل عن الحديث عن ظاهرة الفقر والغنى التي كانت تشكل أبرز الظواهر الاجتماعية لم يغفل أيضا عن هذه الظاهرة، ظاهرة الاستبداد فقد كتب عنها ينتقد هذا الوضع اللاإنساني، ويدعو الشعب الضعيف الى التماسك وطرح النقص الذي هو سبب ضياعه، يقول

«الرافعي»: «وكثيرا مالا يكون هذا النقص «العوز» فيه إلا بمقدار درهم واحد من الفضة التي نزلت عن مقدار الذهب»[٣٤].

ولما أدرك «الرافعي» هذا النقص مضى يبحث عن درهم للشعب يكون بالشعب كله« ويجعله مالكا بعد أن كان مملوكا، وحاكما بعد أن كان محكوما»[٣٥] فوجد أن«هذا الدرهم هو الذي يبقى في يد القدر حتى يجيء يوم الحساب الذي وعدت به الحرية المظلومة للانتصاف من ظالميها فيعطيه الله للشعب ولا يكون إلا رجلاً ولكنه رجل إلهي»[٣٦] وهذا الرجل الإلهي «هو الذي لا تعرفه الحياة ولا يعرفه الموت فلا يذل لأحدهما، تتبرج له الحياة فلا تغره، ويتجهم له الموت فلا يضره، ويبتلى بكل ما يسوء ويسر فلا يسوؤه ولايسره. هو رجل روحه في كفه ـ وهي العلامة الإلهية فيه ـ فما أن يزال يثب بها من كل قبر يحتفر له ولا يسقط أبدا[٣٧]، «لا ينثني لأنه الحق ولا ينحرف لأنه العدل، ولا يخاف لأنه البأس ، ولا يضعف لأنه القوة، ولا يحيف لأنه الانصاف، ولو تعلق به أهل الأرض جميعا لمشي بهم مطمئنا، لأنه في نفسه كقطعة من نظام السماء الذي يجذب الارض في فضائها.

وهذا هو الرجل الذي يتعرف به الناس معا في الاصلاحات النفسية القوية كالشهامة والنجدة والصدق والاخلاص والايثار وما اليها من سائر المفردات، التي يتالف منها معجم الفضيلة»[٣٨].

هذا هو مقدار الدرهم الذي ينقص الشعب، إنه الرجل الذي سيقضي على كل معاني السلب ويتخطى بشعبه كل عوارض الحياة في ظل الصبر والقناعة وشرف الضمير ليعيش هنيء القلب عافي الجسم، ويظفر بمحبة الناس وثواب الله وابتسامة الموت[٣٩].

وهكذا فحلول «الرافعي» للمشاكل الاجتماعية كمشكلة الفقر والغنى والظلم والاستبداد تكمن في صحوة الضمير والصفات الإنسانية السامية التي ذكرها.

هوامش:

١ ـ مصطفى صادق الرافعي: كتاب المساكين، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط٧ ، ١٩٦٣، ص ٦٥.
٢ ـ المصدر نفسه، ص ٦٤
٣ ـ المصدر نفسه، ص ٦٨
٤ ـ المصدر نفسه، ص ٩٢
٥ ـ المصدر نفسه، ص ٨٠
٦ ـ مصطفى صادق الرافعي: حديث القمر، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٧، ١٩٧٤، ص:٤٠.
٧ ـ المصرد نفسه، ص ٣٤
٨ ـ مصطفى صادق الرافعي: كتاب المساكين ص ٧٤
٩ ـ المصدر نفسه ص ٧٤
١٠ ـ المصدر نفسه، ص ٧٤
١١ ـ المصدر نفسه، ص ٧٥
١٢ ـ المصدر نفسه، ص ٧٥
١٣ ـ المصدر نفسه، ص ٧٣
١٤ ـ المصدر نفسه، ص ٧٧
١٥ ـ المصدر نفسه، ص ٨٢
١٦ ـ مجلة الهلال يناير ١٩٢٤
١٧ ـ مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن. (المعركة بين القديم والجديد). مطبعة الاستقامة بالقاهرة. ط٧، ١٩٥٦، ص ١٤.
١٨ ـ المصدر نفسه، ص ١٤
١٩ ـ مصطفى صادق الرافعي: كتاب المساكين ص ٧٥
٢٠ ـ المصدر نفسه، ص ١٥
٢١ ـ المصدر نفسه، ص ١٩
٢٢ ـ المصدر نفسه، ص ١٩
٢٣ ـ مصطفى صادق الرافعي: حديث القمر ص ١٢
٢٤ ـ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج١، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ص٥١
٢٥ ـ المصدر نفسه، ص ٧٠
٢٦ ـ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج١، ص٧٧
٢٧ ـ المصدر نفسه، ص ٧٨
٢٨ ـ المصدر نفسه، ص ٨٢
٢٩ ـ المصدر نفسه، ص ٨٥
٣٠ ـ المصدر نفسه، ص ٩١
٣١ ـ المصدر نفسه، ص ٩٣
٣٢ ـ المصدر نفسه، ص ٩٣
٣٣ ـ مصطفى صادق الرافعي: حديث القمر، ص ٢٣, ٢٤
٣٤ ـ المصدر نفسه، ص ٢٤
٣٥ ـ المصدر نفسه، ص ٢٤
٣٦ ـ المصدر نفسه، ص ٢٤
٣٧ ـ المصدر نفسه، ص ٢٥
٣٨ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦
٣٩ ـ المصدر نفسه، ص ٤١

رفيق الدرب

بقلم:
وديع ملحم العريضي

بالأمس.. كنت ألهو بأحزاني.. كنت أجري وراء الطبيعة. أتسلى معها.. كنت أشعر أنها شقيقتي أو خليلتي. لماذا شعرت كذلك؟ لأنني يومها كنت والطبيعة توأمين من الحزن.. كلانا يدور في فلك ذاته ويبكي.. كلانا يبكي الربيع، والزهر، والأريج الذي افتقده.

كنت أركض خلف الطبيعة على اكتاف التلة.. بين الصنوبرات الشامخة تحت السماء، خلف البحر. تل تشرف على الأفق البعيد، البعيد. والغيوم شلحت شيئاً من أثوابها، نثرتها على الأرض.. بين الصخور والحجارة والشجر. هي التلة التي رضعت مني ذكريات حلوة.. ومرة.. التلة التي كانت مسرح أفكاري.. ومصنع وجودي.. وعليها دفنت قسماً من شبابي بالأمس..

وقد رأيت الطبيعة تبكي.. كنت أتسلى ببكائها.. كنت كذلك؟ لأنها حملت عن أقجاني قليلاً الدموع.. وخبأت في رحمها بضع زفرات أخرجتها من صدري.. وقطرات دماء تساقطت من أنفي.. وقطع صغيرة أخرى تناثرت من كبدي.

... وكانت الشجرات العارية مسلوحة بين السفوح، ترتجف تحت ولولة الريح. والافق قطب جبينه.. والبحر أزبد وأرغى.

.. وأبصرت سفينة على الشاطىء، تمزق شراعها.. لأن العواصف هناك، على شاطئنا.. يمينية عاتية فاسدة.

العواصف هناك.. تجتاح الديار.. تطفىء الانوار، تكسر الصواري الشامخة الى العلاء.. تمزق الأشرعة.. تميت النفوس.. تعبث بحركات التقدم.. تضع السدود في الدروب.

بالأمس..

وأنا الاحق الطبيعة مرتدياً ردائها الكئيب.. ورياح الألم تعبث بأشرعتي.. والموت يتململ في عروقي.. وصورة اليأس انطبعت في عيني .. جلست فوق صخرة على أكتاف التلة.

صخرة أعرفها تماماً. سلخت مني

أياماً وسنوات. ترعرعت عليها مخيلتي. تركت لي ذكريات.

كيف يمكنني أن أنساها؟.. كيف لا أعهدها جيداً؟ لطالما جلست عليها ورفيق الدرب. ومن فوقها تغزلنا بإطلالة الشمس.. وابتسامات الربيع.. وهمسات الطيور العاشقة. وأبصرنا عند أقدامها طاقات الزهور البنفسجية والمخملية والوردية..واستنشقنا أريجها الفواح.

.. ومراراً جلسنا فوقها نبحث اموراً شتى.. نتألم مع العامل المضطهد أمام مستخدميه، والمتسول الذي يقاد الى السجون، لأنه كاد يموت من الجوع، وليس هناك شركات أو مصانع أو مصالح أو نظم اجتماعية تؤمن له العمل، فاضطر أن يتسول ليعيش.

.. ومراراً ابتسمنا ومجدنا الثائر خلف متراسه.. ذلك الذي اجتاز خطوط النار.. وطلب الموت في سبيل الحرية وراحة الاخرين.. ابنائه.. أبناء شعبه وأمته..

.. ومراراً، أنشدنا.. وحيينا، وباركنا خطوات التقدم التي بدأت تجتاح البلاد.. وكادت تعمها.

وبالأمس..

كانت تلك الصخرة كالطبيعة.. كنفسي.

كانت حزينة متجهمة. لا أزهار حولها ولا حساسين،

لا عطور ولا رفيق درب..

جثت بين غبار السحابات السوداء الكثيفة، كأنها ربان سفينة شراعية متهالكة، يقاوم غضبة البحر عرض المحيط.

.. والسماء المكفهرة مالبثت أن بدأت تمطر. والمطر غسل وجهي وقدمي.. وجسدي. لكنني بقيت جالساً فوق الصخرة.. على أكتاف التلة. والصنوبرات أيضاً بدأت تتساقط من أوراقها الوبرية حبات المطر.

وضحكت.. ضحكت.. ضحكت..

لست أدري لماذا ضحكت؟. لعلني ضحكت للمطر الذي أراد غسل دموعي.. ولعلي ضحكت لأنني تخيلت السماء تشاركني البكاء.

أجل، أحسست أن السماء تبكي معي!

لكن بكاءنا كان من نوع آخر. ولأسباب عميقة.. عميقة!..

من يستطيع ان يدري على ماذا كان بكاؤنا؟.. لا بأس، سأنفض عني غبار الجبن، وأتكلم أنا.

كان بكاؤنا على نسيمنا الذي اصبح فاسداً موبوءاً.. على الشباب الذين يموتون وهم أحياء.. على الارض الملوثة بأدران رجعية عتيقة.. على المفاهيم الفاسدة التي يسبح بها معظم أبناء هذه البقعة من بلدنا.. على الاموات المحتاجين لحفاري قبور.. على كل شيء.. وكل شيء في هذه البقعة الملوثة من وطننا الكبير.. يستحق البكاء والرثاء.

غفوت.. وحلمت ـ وكانت الطبيعة مشغولة بالمطر ـ وأنا غائص في الالهام فوق صخرة الذكريات.

حلمت، ان الاصلاح والتقدم.. عمَّا جميع المناطق.

حلمت، أن ميادين الاعمال.. واسعة.. مثمرة.. ومجدية.

وحلمت، أن أبواب الأرزاق والمصالح كثيرة.. وأنها مفتوحة امام الجميع.. وليس هناك بطالة.. أو مجال للبطالة.. وأن مستوى المعيشة قد ازدهر، وعم البلاد!..

.. وأثناء أحلامي رأيت كل ذلك في عيني..

رأيت سواعد الفلاحين تشقق الأرض البوار.. تربعت فوق خدودهم المكتنزة حمرة جميلة ، وردتها ريح اليسار.. والبسمة اشرقت كالربيع على ثغورهم الواسعة.

رأيت الأرض من حولهم تبتسم .. ونوافير المياه تنعش المزروعات النامية. النامية بسرعة فائقة. كأن يدي عذراء مسحورة، تمسها بالخفاء، وترفعها نحو السماء.

وحلمت .. ورأيت في عيني .. رأيت الطلاب. جميع الطلاب. جميع الأولاد.

الأولاد والفتيات والشباب. جميعهم يحملون الكتب المجانية.. يذهبون الى المدارس، والجامعات. يذهبون. يتلقون العلم. ينهلون المعرفة. يستنيرون الطريق. كل ذلك دون رواتب. دون ابتزاز أموال الفقير.. واحتكار العلم لطبقات معينة.

صموت. وجدت كل ما حولي عابساً مكفهراً. وأنا من فوق الصخرة غائص بالضباب الاسود.. غائص في بئره حتى قدمي.

.. وانطلقت من فمي زفرات.. تنهدات..صرخة خرساء..

آه.. لو أن صديقاً أجده الآن.. صديقاً يأخذ بيدي.. يساندني في محاولات للتخلص من جوف هذه البئر الفاسدة، التي أغوص فيها مكرهاً.

لو أنني أجد من ينقذني من هذه البقعة التي تنمو فيها آفات مفاهيم ضيقة.

آه ، لو أن النسيم يتبدل .. ورياح الجنوب تزول.

لو تهب عواصف شمالية هوجاء.. لبددت هذا الضباب الأعمى.. وغيرت مجرى النسيم الخانق.. واستنشقنا ملء انوفنا نسائم عطرة.. نسائم الحياة.. نسائم الحرية.

عدت .. وتذكرت رفيق الدرب..

آه.. لو أنه يعود! ترى، أين هو الآن؟.. من يدري، لعله سبقني في الطريق... ومات!

مات.. مات.. مات..

ما هذه الكلمة الهوجاء .. ولماذا يسبقني ويموت؟.

إن كان قد مات؟ فلعل ذلك حدث ، لأن لسانه جف وهو يحدث بالخير، والحق.. ويهدي الطريق القويم الصامد.. ومواطن الربيع الابدي المزهر.. ولم يجد من يسمعه الا الحجارة، والجدران الصامتة الصماء.

أو مات؟.. لأنه أراد التهرب من الاقفاص.. والسجون، والنحيب.. او التهرب من المعارك المصيرية.

.. واختمرت فكرة الموت في رأسي. أقنعت نفسي بأن رفيق الدرب قد مات.. غرقت في فكرة عمياء مضطربة. أقسمت على أنني سأتبعه في الطريق، وأموت!

وبالأمس..

بعد ان تركت التلة، والصخرة، ورافقت المطر غائصاً في بحيرة الضباب الى حيث سأموت.. أقبل عليّ ساعي البريد، وسلمني رسالة. صفق قلبي عندما وجدتها من صديق عزيز عليّ.

الدمعة كانت في عيني حينذاك. أما بعد ما قرأت الرسالة، فقد أحسست أنني وجدت من يكفكف دموعي.

صديقي في البقعة الاخرى.. ملأ رسالته بحفنة رياح.. رياح عطرة الشذا.. كانت خلاصة أنفاس متصاعدة مع ضجيج هتافات الجماهير.. هتافات جماهير هائجة مع بحور ريح الشمال.

.. وتراءى لعيني.. كأن حفنة الريح هبت من الرسالة.. ودارت في أجواء بلدي كالزوابع المتمردة.. دارت تغير معها مجرى الرياح.. وأحسست بالأمل ينبت في نفسي، يترعرع مع نظراتي الشاخصة الى البعيد..

*

وصلت الى البيت ففوجئت برفيق الدرب بانتظاري.. تصافحنا. تعانقنا.. وبدأ يتكلم ، ويتكلم..

.. وافتتح كلامه معتذراً عن الزمن الطويل الذي قاطعني خلاله.. واخيراً عاد بأحاديثه يذكرني بالظلمة التي تعانق الدار.. الدار الكبيرة.. يذكرني بالبؤس.. والاحتكار.. والافات التي تمتص الضعيف.. وكيف ان الشمس ستبزغ يوماً.. والربيع يطل مبتسماً.. والازهار تضحك مرحة.

.. وبعد أحاديث، وأحاديث.. أقسمنا على اقتحام السدود، وتخطي المصاعب الى النهاية..

إنه رفيق مخلص وفي . إن وعد وعاهد، لا يخلف بوعوده أو يحنث بعهوده..

إنه.. إنه.. إنه قلمي!..



الآثاري والكاتب

بقلم:

عبد الحكيم الذنون

يقول الموصلي في مقدمة كتابه «الاشارات الى معرفة الزيارات» والتي قامت بتحقيقه جانيت سورديل ـ طومين، ما يلي: «سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شهدته من العجائب والأبنية والعمارات، وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور.. وها أنا أبتدئ بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها، والبلاد التي تليها، ثم أذكر الشام بأسرها والساحل بأسره، وبلاد الافرنج وفلسطين والأرض المقدسة، وجميع زيارات بيت المقدس ومدينة الخليل، وديار مصر بأسرها، والصعيدين والبلاد البحرية والمغرب، وجزائر البحر وبلاد الروم، وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها، وأطراف الهند والحرمين الشريفين مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ واليمن وبلاد العجم.. وهذا الكتاب مقتصر على الزيارات، أما ذكر الأبنية والآثار والجائب والأصنام فلها كتاب مفرد غير هذا.

من خلال ما تقدم يتبين بأن الرحالة والجغرافي العربي أبو الحسن الموصلي له متابعات واسعة في مجال الجغرافية الوصفية حيث قام بتسجيل ملاحظات دقيقة ومعلومات مفيدة لا نجدها عند جغرافي آخر في مرحلة القرن السادس للهجرة، على الرغم من كون هذه الفترة. شهدت ومنذ القرن الرابع الهجري بروز أسماء عدد من الكتاب أسهموا اسهاماً بارزاً في ازدهار الكتابة الجغرافية عند العرب، وكان لهم نشاط واسع النطاق أمثال البيروني والاصطخري والادريسي والمسعودي والمقدسي والبكري وابن حوقل وابن جبير وياقوت الحموي.

ولد علي بن أبي بكر الهروي الموصلي في مدينة الموصل سنة ٥٤٢هـ وكني فيما بعد بأبي الحسن، وقد اتجه منذ الصغر نحو الدراسة والتحصيل العلمي فدرس في مدارس الموصل، وتتلمذ على أساتذتها

الأجلاء، ثم ارتحل الى الشام ومنها الى مصر ودرس على مشاهير علمائها وخاصة الحافظ السلفي في مدينة الاسكندرية، وقام بعدها برحلات استغرقت سنوات عديدة جاب خلالها كثيرا من أجزاء العالم القديم المتمثل بالقارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوربا.

ونذكر ما كتبه حول أحد تماثيل مدينة الاقصر الأثرية في مصر العليا حيث يقول: «مدينة الأقصر بها من الاثار والقصور والأصنام وصور السباع والدواب ما لم أرَ مثله في بلا دالصعيد وغيرها، وذرعت يد صنم من الحجر المانع فكان من المرفق الى مفصل الكف سبعة أذرع، وكان في يدي سعفة من جريدة النخل فعملتها قلماً وكتبت، واستشهد بآيات من محكم التنزيل حيث قال تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم» أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فيما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

تميز الموصلي عن الرحالة الآخرين كونه يقوم بجمع اللُقى الأثرية والأشياء الثمينة والنادرة ويحتفظ بها للذكرى وعلى سبيل المثال نذكر ما قام بجمعه من آثار ولقي على هيئة حيوانات متحجرة على شكل تماثيل من العصور القديمة أثناء رحلته بين الاسكندرية وطرابلس المغرب.

ويقول المؤرخ ابن خلكان عندما زار حلب ودخل القبة التي يرقد تحتها ضريح أبي الحسن الموصلي: «رأيت في قبته معلقاً عند رأسه غصناً وهو حلقة خلقية ليس فيه صنعة، وهو اعجوبة، وقيل إنه رآه».

لقي أبو الحسن الموصلي الأهوال والمصاعب في رحلته الشاقة المضنية، نذكر منها حادثتين وقعتا له وأثرتا فيه كثيراً، الأولى سفره من صقلية الى قبرص بعد اجتماعه بأحد الزعماء المسلمين فيها وهو أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر الذي أرسل معه رسائل الى القائد صلاح الدين الأيوبي يحثه فيها على استرداد صقلية من يد النورمان، لكن المركب الذي أقله غرق فركب في مركب آخر، وذهبت كتبه وحاجاته في أعماق البحر المتوسط، والثانية نهب ريكاردوس ملك انكلترا القافلة التي كانت سائرة في جنوب فلسطين على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم، وكان في القافلة ابو الحسن الموصلي، ومن جملة ما ذهبت له مجموعة من الكتب.

يقول الموصلي في «الاشارات»: «إن كتبي أخذتها الفرنج نوبة الواقعة بخويلفة لما قصدها الانكتار ملك الفرنج، ثم أنفذ الي رسوله ووعدني بإعادة ما أخذه ويضاعفه، وطلب الاجتماع بي فلم أمضِ إليه، وذلك سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة».

كان الموصلي يستقصي ويحقق ثم يسجل، وقد يضطره الأمر أن يرسم الشيء الذي يراه كما فعل حينما زار مدينة سالونيك اليونانية حيث يقول: «مدينة سالونيك يقصدها الروم والفرنج ويزورونها، أما قول الناس ان لها سبعة أسوار فإذا دخلها الداخل لا يعرف كيف يخرج، فلا أصل لهذا الكلام ولا صحة له، بل لها حبس عمارتها على هيئة الحلزون، وإذا حبس به أحد لا يهتدي للخروج منه، وهذا صورته».

ولا يكتفي أبو الحسن الموصلي بما يروى له عن المواقع الأثرية وان كانت صحيحة، وانما يكشف عن الشيء بنفسه ويمعن النظر فيه ثم يقوم بالتدوين التاريخي، ومما قاله في أهرام الجيزة في مصر السفلى والتي تعود لحقب حضارة وادي النيل الفرعونية القديمة: «الأهرام من عجائب الدنيا، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع.. وقيل ان المأمون فتح هرماً منها وهو أحد الهرمين اللذين عند الجيزة، فوجدوا داخله بئراً مربعة في تربيعها أبواب يفضي كل باب منها الى بيت فيه

موتى بأكفانهم، وقيل انهم دخلوا ووجدوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال، القبر وفيه صنم كالآدمي من الدهنج، وفي وسطه انسان عليه درع من ذهب مرصع بالجوهر، وعلى صدره سيف لا قيمة له، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار، ودخلت هذا الهرم وصعدت اليه ورأيت هذا الحوض».

وحول مسأل تحنيط المومياءات في حضارة مصر القديمة يقول الموصلي: «وفي بلا دالصعيد وجبالها مغائر مملوءة من النساء الموتى والطيور والسنانير والكلاب، جميعهم باكفانهم الى اليوم، والكفن كأنه قماط مولود عليه أدوية لا تبلى، فاذا حللت الكفن عن الحيوان تجده لم يتغير منه شيء، ورأيت جويرية قد أخذ كفنها وفي يديها ورجليها آثار خضاب بالحناء».

لقد زار الموصلي أصقاعاً كثيرة، وشاهد معالمها واثارها الشاخصة عبر حقب التاريخ وكتب عنها، ومما يقول في حمام طبرية بفلسطين: «إنها من عجائب الدنيا، فان مثل هذه كثير رأينا في الدنيا».

وبعد رحلة طويلة عاد الموصلي الى حلب في ظل دولة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي الذي قربه لمعرفته بالتاريخ والجغرافيا والسيمياء فشمله برعايته وبنى له مدرسة في ضواحي حلب، وتذكر المراجع ان الموصلي كان تقياً ورعاً ولم يتزوج، ولم يكن له قريب في ديار الغربة، وتوفي في شهر رمضان سنة إحدى عشرة وستمائة للهجرة.

لقد كان المصولي شاعراً، وقد نقل لنا ابن الشعار في كتابه الموسوم: «عقود الجمان»، مقطوعات من شعره لا يمكن ان تقوم عليها دراسة، أما نثره فيتميز بالوضوح والسهولة والتحلل من قيود البديع والصنعة.

خلّف ابو الحسن الموصلي مجموعة من أعماله وصل الينا بعضها وضاع البعض الآخر، ويبدو أن أغلبها وضعت بعد عودته من رحلته.. يقول في مقدمة كتاب الاشارات: «وإن جرى فيما أذكره بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد فاسأل الناظر فيه والواقف فيه الصفح عن ذلك واصلاح الخطأ وإيضاح الحق، فان كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج، ورغب في الوصول اليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر، وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين عديدة وقد نسيت أكثر ما رأيته، وشذ عني أكثر ما عاينته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد، ولا يصل اليه أكثر المسافرين والعباد الا رجل جال الرض بقدمه وأثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه».

وفيما يلي أسماء مؤلفات أبو الحسن الهروي الموصلي:

١ - الاشارات الى معرفة الزيارات - حققته جانيت سورديل - طومين، طبع في المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥٣.

٢ - التذكرة الهروية في الحيل الحربية - حققه مطيع المرابط - طبع في دمشق ١٩٧٢.

٣ - الخطب الهروية - حققه مطيع المرابط في ذيل التذكرة الهروية، والخطب الهروية عبارة عن عبر ومواعظ وارشادات نقشها أبو الحسن على واجهات وأبواب مدفنه الذي بناه وهو على قيد الحياة.

٤ - رحلة أبي الحسن - وتوجد منه نسخة واحدة في المكتبة الخديوية المصرية تحت رقم ٧٤٧٤.

٥ - العجائب والآثار (مفقود).

٦ - زيارات الشام (مفقود).

٧ - معيار الزمان (مفقود).

٨ - منازل الأرض ذات الطول والعرض (مفقود).

من خلال مسيرة أبي الحسن الموصلي في التقصي عن الاثار وتأملاته بين أروقة التراث ورحلاته نحو مواقع التاريخ والمجد والمنعة، تكونت لديه خبرة مكتسبة وسعت من آفاقه وحفزته على الابداع والتوصال في مجال المعرفة، وتدوين الأحداث التاريخية، وأحوال الشعوب وطبائعهم، مما أسفر عن معلومات هائلة في مجال الاثار التي تعود الى العصور التاريخية القديمة والوسيطة، محققا إضفاءات نوعية الى مكتبة التاريخ والجغرافيا.

حامد حسن

أيها الطيف !!

مَن أحال المترفات المخصبة
من أمانيّ صحارى مجدبه؟
ومن اغتال بجفنَي شاعرٍ
صادقَ الحلم، وأبقى أكذبه؟
شاعراً! كم شاعرٍ في أمةٍ
أوشكت من جهلها أن تصلبه!
ذو خيالٍ كلما أسرجه
لا يرى الا الثريّا ملعبه

* * *

كرم آلامي وفير خمره
أين من طاب له أن يسكبه؟
يزرع اللباسُ جفوني كلما
شاءت النوم طيوفاً مرعبه!
لي اذا ما جن ليلي آهة
ربما خاف الدجا ان تلهبه

* * *

أيهــــــا الطيـف الـذي لا أشـــــــتكـي

بعضَ مـــا بي خـــيــفــةً أن أغـــضـــبــه

هــانـيءُ الـغــــــفـــــوة لـكـن عـنـدمـــا

نغّض الفـــجـــرُ جناحـــيـــه انتـــبـــه!!

طـلـعــــــةٌ أشــــبـــــه شيءٍ بالضـــحـى

مـــا تعـــشّـــقت الضـــحى لولا الشّـــبـــهُ!

لـيس من حـــــــقي عـلـى مـــــا بـيـنـنا

من أفـــانين الهـــوى أن أعـــتـــبـــه

* * *

رحـلـة الـنّـعــــــــمى حـكـت عن أمـــــسنـا

عن شـــبـــابينا حكايا مـــســـهـــبـــه!

لـيلـة الـنجـــــوى! وكـم من نجـــمـــةٍ

غـــامـــزتنا هامـــستنا مـــعـــجـــبـــه!

لملمـــتــهــــا، خـــبّـــأتهـــا غـــيـــمَـــة

انهـــا الـغـــيـــرى، وليـــست مـــذنبَـــه!

* * *

أيهــــــا الطيـف الـذي لا أشـــــــتكـي

كـل مـــا بي خـــيــفــةً أن أغـــضـــبــه!!

عـنـكـبَـتْ كـل زوايـا غـــــــرفـــــتي

وغـــزا جـــيش الغـــبـــار المكتـــبـــه!!

مـــا تـغـــيـــرتُ، ولكن بعـــضـــهم

ربما غـــيّـــر حـــتى مـــذهبَـــه

رسالة حب

للشاعر والأديب الكبير الأستاذ مدحة عكاش بمناسبة تكريمه

بيــــانك في قلبي أراح وأســـعـــدا

وهزَّ لســـاني فـــاســـتـــقـــام وغـــرّدا

فـــان قلتُ شـــعـــري في مـــديحك إنما

بشـــعـــرك أشـــدو صـــادحـــاً ومـــرددا

ومـــا كنتُ وحـــدي في رياضك منشـــداً

فكلّ الذي غنّى. بشـــعـــرك أنشـــدا

جلستَ على عـــرش (الثـــقـــافـــة) هادياً

وكنت بليل الجـــهـــل بدراً وفـــرقـــدا

وســـرت طريق الضـــاد وعـــراً وشـــائكاً

وخلفك قـــد ســـرناه ســـهـــلاً مـــعـــبـــدا

زرعت على جنبـــيـــه زهراً منمنمـــاً

وأغـــريت جـــيـــلاً بالغـــلال ليـــحـــصـــدا

فـــهـل يذكـــر التـــاريخ إلاك زارعـــا

وهل تـذكـــر الأجـــيـــال إلاك مـــرشـــدا

(أبا عـــاصم) مـــاجـــئتُ حـــفلك مـــادحـــاً

ولكنني جـــئت الزفـــاف لأشـــهـــدا

قـــصـــدتَ رياض العـــبـــقـــرية خـــاطبـــاً

وكنتَ لهـــا أهلا وحلمـــاً ومـــقـــصـــدا

دفعت سناء العين مهراً لوصلها
وقلدتها من دمع عينيك عسجدا
وأشعلت في عرس البيان أناملاً
يراعك أزكى نارها وتوقدا
أنرت بها ليل الجهالة والغِوى
وأحييت بالفصحى تراثاً ممجدا
ودافعت عن عرض الأصالة ماجداً
وأنكرت تطبيعاً بنهج من اعتدى
وشيدت للشعر الأصيل منائراً
يسير بنعمى نورهن من اهتدى
دعوت إلى الابداع في كل محفلٍ
وأنكرت اسماً للقريض مقلدا
فسميت نثراً كل قولٍ لشاعرٍ
إذا ما نحا عن منهج الشعر مبعدا
فما الشعر إلا بالقوافي تزينه
كعقد لآل بالمهارة نُضّدا
ووزن كعزف العود من كف بارعٍ
يهدهد في الآذان لحناً مجدّدا
وصورة فنان تسامى برسمها
فأنطق ألوان الجماد وجسدا
وما الشعر في رسم الطلاسم نزوة
يترجمها من شاء كيف تقصّدا

وليس بتقويض البناء الذي سما

وطاعت له الدنيا ودان له العدا

ولا في انتقاص الأولين وشعرهم

وشتمِ الذي أرسى البيان وشيّدا

فلولا جذور الورد ما طال غصنه

ولا فاح بالعطر الشذيّ و ورّدا

(أبا عاصم) يا نفح طيب عرفته

تجلبب بالارث القديم وجددا

تعكّفتَ في (دار الثقافة) ناسكاً

وما خلتُ أن الشمس تصبح معبدا

ولكنني أدركت ذاك بأنجمٍ

تحج لها في كل يومٍ تعبدا

ويقبس منها الناس نوراً تشعّه

من الأدب السامي تندّى زبرجدا

تعشّقها صحبي وكنت بركبهم

كصحب رسول الله مجداً وسؤددا

صدحنا بصوت الحق في كل منبر

وكانت لنا (دار الثقافة) مربدا

فان كان أصحاب (السقيفة) بايعوا

مخافة بطش المشركين محمدا

فقد جاء أصحابي جهاراً وبايعوا

(أبا عاصمٍ) والكون جاء مزغردا

أتيت إلى عرس البيان مهنئاً
اغنّي ـ وزرياب ينافس معبدا
وهل لغنائي في مديحك شأوةٌ
أنافس فيها من أجاد وغرّدا
فهب لي يراعاً من بيانك رافداً
ودغدغ لهاتي كي أقول وأنشدا
تجدْني وحيداً في المسارح صادحاً
وكل الذي غنى لصوتيَ قلّدا
ولست أغالي أو أحابي فما أنا
بناكر فضل أو خلقت لأحسدا
فقد أبصرت عيناي فيك شمائلاً
سموت بها نبلاً وجوزيت مَحْمَدا
نفرت لتحمي الضاد من غدر أهلها
وعرَّبت في جنبيك قلباً مسددا
ومن كان بالاسلام يعتز صادقاً
تسامى إلى قحطان نبلاً ومَحتِدا
ومن كان بالقرآن صحّ لسانه
تسامي على أهل البيان وسُوّدا
فلا تعجبنْ ممن اتاك مبايعاً
ونال بك النعمى وكنت له الندى
ولا تعجبنْ من حكمة الله اذ رمى
فكنت بما أعطاك ذهناً توقدا

وذاكــــرةً تســـمـــو على أي حـــاسب

تبـــرمج من علم البـــيـــان وزوّدا

تعـــود إلى الماضي بومـــضـــة بارقٍ

لتـــســـرد مـــا وارى الزمـــانُ وبددا

كـــمـــا تفـــعل الأحـــلام في لحظة الكرى

وتخـــتـــصـــر الأحـــداث قـــولاً ومـــشـــهـــدا

(أبا عـــاصمٍ) مـــا أطلق الشـــعـــر من فـــمي

ســـواك وكم بالعِيِّ كـــان مـــقـــيـــدا

بذكـــرك يحلو أن كـــتـــبتُ أُجـــاجـــا

فكيف وقـــد لاقى نداك ومـــجـــدّا

فـــأنت وشـــعـــري في اخـــتـــلاف فكلمـــا

تواضـــعـت يرقى في عـــلاك مـــخلّدا

يزف لـك الاطـراء والحـب صـــادقـــاً

وإنك تأبى أن تُثـــاب وتُحـــمـــدا

نذرتَ لوجـــه الله جـــهـــدك خـــالصـــاً

وجـــاهدتَ لا تبـــغي جـــزاءً ومـــقـــصـــدا

فكـنـت مـــثـــالاً للـعطـاء منزّهـا

وأصـــبـــحت للعطشى إلى الضـــاد مـــوردا

أثابك ربي عن عطائك منعـــمـــاً

وأعطاك عـــمـــراً هانيء العـــيش ســـرمـــدا

* * *

الحمى

مسقط رأس الشاعر

تركتُ «الحمى» طفلاً وعدتُ الى «الحمى»
وفي لمتي خطَّ المشيب وعلَّما
وسلمتَ عمري للنوى وصروفه
وظلَّ بها قلبي مشوقاً ومغرما
وما غبتُ عنها ساعةً فخيالها
يرفُّ على الأجفان طيفاً منمنما
لها في دمي عمر الطفولة والصبا
وفي مهجتي شبٌّ الوفاء وبرعما
أداعُبها خلف الضلوع لعلها
تردُّ الى المشتاق عهداً تصرَّما
يطيبُ على بعد المزار نسمُها
إذا هب من ريًا شذاها ونسَّما
ففي فجرها النديان ما أطيب الهوا
وفي ليلها النشوان ما أجمل السما
امرُّ بها كي أستريح وينطفي
بصدري من الأشواق ما صار مضرما
اذا ازدحمتْ خلف الجفون وحوَّمتْ
طيوفُ مغانيها أذوب تألما

فكم جُنَّ شـوقي في الغـيـاب ولا حني

وضجَّ على الهـجـران قلبٌ وتمتـمـا

فـأمـسك من وجـدٍ دمـوعـاً تحـيـرتْ

إذا مـرَّ طيف الراحـلين وسلّمـا

* * *

فـيـا ملعبَ الأحـلام قـد عـدتُ متـعـبـاً

ألملم عن خـديك شـهـبـاً وأنجـمـا

تمرُّ بفكري والخـيـال طفـولتي

فـتـزرع في صدري حـراباً وأسـهـمـا

وأسـأل عن مـاضٍ تغـرَّب وانطوى

وراء مـتـاهات الزمـان وخـيَّـمـا

فـأين أصـيـحـابي وأين مـلاعـبي

فـعـمـري هنا في كل ركنٍ تهـدمـا

وأين حـبـيـبـاتي وأين عـرائسي

طوى الغـيـبُ سلمى والربابَ ومـريما

ولم يبق إلا الذكـريات ألوكـهـا

ملولاً ووجـه الطيـبـات تجـهـمـا

فـأمـسح في كـفي من الحـزن دمـعـةً

وأمـسك بالأخـرى فـؤاداً مـقـسَّـمـا

* * *

وقـفـتُ وحـيـداً فـوق اطلال دوحـتي

أضمّ على مـرِّ الصـبـابة مَـعْلمـا

أعـــود اليـــــهـــــا والحنين يشـــــدني

ويســبــقني من جـانب الجـفن مـا همـا

وأســـالهـــــا يا مـــوطن الأهل هل خلتْ

ربوعك حـتى باب صـبـحُك مـعـتـمـا

وهل غــيَّب الدهر الخـؤون فــوارســاً

أشـــادوا على كــتف المجـرة سلَّمـا

فــبــالأمس كــالنوا كــالنجـوم ســواطعــاً

إذا اســـودَّ ليلُ النائبـــات وأظلمـــا

وبالأمس كــــانوا غــــرةَ الصـــبح والندى

فــاي فــتىً مــا كــان للبــدر توأمـــا؟

أجــابتْ وقـــد أدمى الحنين جـــفـــونهـــا

وفــاضت مــآقــيــهــا بردٌ تلعــثــمـا

وقــالت توارى الصــادقــون وغّــيــبـوا

وبـاتـوا بـاعـــمـــاق المقـــابر نوَّمـــا

فـضـجتْ أسىً في عـتـمـة الصـدر غـصـةٌ

وكم من أسىً في الصـدر قـد أخـرس الفـمـا

* * *

حـبـيـبـة هذا القلب رفـقـاً بمتـعبٍ

أتـاك وقــــد أخنى الزمــــان وأهرمـــا

تغـــرَّب عن مـــغناك يا واحـــة الصـــبـا

بغـــيـــرك مـــا غنَّى وهـام ورنمـا

فأنت وراء الهدب في العين لوحةٌ

من الحسن سوّاها الإله ونظّما

أتاك وفي أحنائه ألفُ قصة

تفيض المآقي من لواعجها دما

وبعثر خلف الغيب عمراً ممزقاً

وعاد يجر الشيب واليأسَ مرغما

فقولي له أهلاً وسهلاً بعاشقٍ

مضى يافعاً وارتدَّ شيخاً محطما

قضى عمره خلف الظنون معذباً

بأحلامه الكبرى وبالهم متخما

فليس له إلاّ ترابكَ ملجأٌ

إذا طاف ظل الموت يوماً وحوّما

فضمي رفات المستهام وسطري

على لحده بيتاً من الشعر مؤلما

هنا يرقد الصبُّ الذي عاش نازحاً

فخوراً بما أدى. ثرياً ومعدما

غنياً ولم يترك سوى الذكر طيباً

وبعضاً من الأوراق إرثاً ومغنما

هنيئاً له قد مات شهماً ومؤمناً

وكان بحب المكرمات متيما

* * *

محمد حسن منجد

قصيدتان

عذراً يا بني وطني

أصوغ شعري على اسم الله والوطن
حتى يشقّ على درب الهدى كفني
أصوغ شعري فلا الصلبان تسمعه
ولا الأهلة في دوّامة المدن
حتى برمت به وزناً وقافية
وفكرة في بحار الصمت تغرقني

* * *

تميّز الشعر غيظاً إذ برمت به
وعقني معرضاً عني فأغضبني
وأدبر الحرف مذعوراً أطارده

* * *

حتى وقعت على فكر يشوهني
فما حملت يراعي في مساومة
إلا وشقّ عصا الإذعان يرفضني

* * *

استغفر الشعر كم أسرجت صهوته
وكم ترجّلتُ فاسترخى يهدهدني
وكم تشاءب في أوكار ذاكرتي
وكم غفا تحت ملحاحٍ من الوسن
فعدت أبحث عن أشتات قافية
كادت لشدة ما أسرفت تهجرني
حتى ملكت سنا الإبداع فانتظمت
حبات عقدي وعاد الشعر يملكني

* * *

يا سارياً بدمي أرّقت أوردتي
لما غفوت على الأوجاع والدُّرن
إني رجعت الى هدي الألى فهوت
هياكل بدّدت ما كان يقلقني
أغربت سرب عذارى الشعر فانطلقت
على لساني القوافي البكر تطلقني
أفق عدمتك إن لم تنفجر حمماً
تجري على موجها رغم اللظى سفني
إني سئمت قوافي الشعر باردة
فلتحترق في جحيم القول يا وثني
وقد صبأت فلا الحسناء تشغلني
ولا المدائح والأذكار عن سَنني

* * *

أفق تقحّم جدار الصمت مدّرعاً
بالمعجزين كتاب الله والسُّنن
وانشر جناحين من علم ومعتقد
تلق الحروف بنور الحقّ تكتبني
لكم شحذت يراعي وانطلقت به
أغزو المفاتن حتى كاد يفتنني

أيام كنت أسـيـر الحب يملكني
شوق لعيني حبيب كان يشغلني
فـرحت الجم أفكاري أروضها
حتى تهادت على الإيمان تحملني
ما جئت بدعاً ولكن صاغني قدرٌ
بأحرف من سنا الإلهام تبدعني
وليشهد الله ما رتلت قافية
إلا استعنت بوحي منه يلهمني
فبوركت ومضة الاشراق من قلمي
تطوي صحائف من عمري فتنشرني

* * *

غنيت للصبر ما غنيت فانتحرت
كل الأماني على مزماره الخشن
حتى تفجرت كالبركان تقذفني
ثوابت حركت ما كان يمسكني
ما أقبح الشعر إن لم يغد صاعقةً
على الرؤوس وما أحلاه يصعقني
تجاهلتني أفاعي السم في وطنٍ
لا عذر فيه لمن في الساح يجهلني
أغروا صنائعهم بي فانتهوا بُدداً
لّما رتقت غشاء الطبل في أذني
ورحت أشعل بالإيمان محرقتي
فاسّاقطوا وتهاوت غلطة الزمن

* * *

أفق تنكب سلاح الحرف منصلتاً
على الرقاب بعزم الواهب الفطن
أشعل جراحي يهم النور مبتكراً
واعتق لساني تلق الصمت يعتقني

لا تلجمنّي بما ترضاه لي هدفاً
لا كنتُ.. لا كنتَ إن حاولت تلجمني
لم أحترق بشهيق النار ما احتدمت
لكن أحس زفير الصمت يحرقني

* * *

هذي الملايين صرعى الزيف يبصقها
عصر الحضارة في ماخوره النتن
أضحوا على العتبات السود يجذبهم
نهر الظلام الى بوابة العفن
فانظر بعين الرضا والسخط حين ترى
إرادة القوم بين العزم والوهن
ناموا مع الفجر لا نامت عيونُهُمُ
وأسرجوا الخوف والإذعان في المحن
صاموا عن الحق والإيمان حين أتى
شهر الصيام وجاؤوا الفطر بالفتن
هذي منابرهم في كل منعطفٍ
تروي حكاية مسلوبٍ ومُرْتهن
دبَّ الخنوع بهم حتى لتحسبهم
أشباح قوم دبيب السكرفي البدن
باعوا دماء الضحايا فاستهان بهم
من راح يذبح كبش السلم في الدِّمن

* * *

ماذا أقول وقد جفّ المداد ولم
يجر القريض سريّاً غير ذي أسَن
فرحت أوقظ من ناموا بثاقبة
حمراء تنذر أهل الصمت في وطني

* * *

يا حاملين عصا الترحال من وجعي
هاتوا اللهيب لعلَّ الكي يبرئني

شقوا الغيوم رياح الغيث ساكنة
لعلّ صحو سماء الفكر يمطرني
هزّوا النخيل أرى العذراء ضارعة
وطفلها ناحلاً من نُدْرة اللبن
لم يطرّح رطباً حتى تقرّ بها
عين التي أحصنت فرجاً ولم تخن
هزّوا النخيل أرى الجدران باكية
وصخرة المسجد الأقصى تؤنبني
هزوا النخيل أرى الزيتون قد صبأت
أغصانه بثمار الكفر تقذفني

* * *

يا ابن الوليد صراخي ضاع في نهرٍ
صوت الضفادع في شطيه يزعجني
ما لامست كلماتي جرح منتفخ
هل في القبور طري الجرح يسمعني

هزّوا النخيل أرى الآبار قد نصبت
بل صودرت وتغشى الزيت في الحزن
تلك الجذوع التي غصت بما حملت
يجوع في ظلها طفل يمزقني
تثاقلت وارتمت إذراح صاحبها
يقايض الزيت والآمال بالمؤن
والجائعون حيارى في مواسمهم
لم يحصدوا القمح بل ناموا على ضفن
ونحن نوغل في أحشاء منتنةٍ
بحثاً عن العطر في سرٍّ وفي علن
كأننا سرب طير دون أجنحةٍ
نهوى البقاء بلا أهل ولاسكن
فاستغفروا ليَ إن حمّلت قافيتي
ما لا تطيق من الآلام والشجن
إني شربت دمائي في مقامرة
وما ارتويت فعذراً يا بني وطني

دماء الخوف

أعيش الخوف أحلم بالأمان
بغاشية الزمان من الزمان
أعيش الخوف منذ جريت دفقاً
وسوّى الله من حمأٍ بناني
خرجت من الظلام وكان حتماً
خروجي من دياجير المكان
وواجهت الضياء وزاد خوفي
يقيني أنني لا بد فان
لأحشر للحساب وأي حشرٍ
يطيش لهول مشهده جناني

* * *

أعيش الخوف حين السعد يبدو
ويرهقني التباعد والتداني
وتتركني المخاوف حين يصحو
جنوني في مسابقة الثواني
ويحسدني الجهول على جنوني
وسيري في الحياة بلا عنان
ويحسب أنني مازلت غراً
مع السنين أخسر في رهاني
فلا أنا من ذوي «المليار» مالاً
ولا أنا من قراصنة البيان
وجل الحاسدين عبيد مالٍ

تفـــانوا بالجـــواهر والجـــمـــان
وحـــسـبي أنني بضـيـاء شـعـري
غـزوت الشـمس بالغـرر الحـســان
* * *
دمــاء الخــوف تصـهل في عـروقي
وتتــركني أعـــاني مـــا أعـــاني
أســابقـــهـــا بطيء الخطو أعـــدو
فــتـسـبــقني وتنخــر في كـيـاني
وتسلمني لمفـــتـــرق مـــريبٍ
تـلـوح بـه ســـرابات الأمـــاني
وأرجع والضـبــاب يلفُّ عــمـري
لأوغل في ســحــابات الدخـــان
اقطِّر من دمـــوع اليـــأس حلمـــاً
خـــريفـــيّـــاً تعـــتِّـــقـــه دناني
وأزرع فـيــه كل شــتـات عـمـري
فــتــحـصـده نيـوب الأفـعـوان
عـيش الخـوف من أمـــواج وهمي
وجـــهـلي للـشـــواطـىء والمواني
وتقـــذفني رياح عـــاتيـــات
الى جـــزرٍ يشلُّ بهـــا لســـاني
تميت الشـعـــر في قلبي وتحـيي
أحـــاديث الرياء بمهـــرجـــان
* * *
أعـيش الخـوف ينهـشني ضـمـيـري
إذا أحكـمـت أقنعـــة الجـــبـــان
وجـــربّت الشـــجـــاعـــة دون رأي
وحطم كل ســـامـــقـــبـــة سناني
وحـــاولت العـــبـــور الى مكان
بلا صــحـــو يضـيـع بهـــا حناني
* * *
أعـيش الخــوف من نزوات نفـسي
إذا جــمــحت وغــادر في اتزاني
وخلّفني أســيــر هواي أمــضي
علـى جـــرف المذلة والهـــوان
فــــأبلع ذلتـي، وألوك يـأسي
وأعـــرض عن مـــغـــازلة الغـــواني
* * *
أعـــيش الخـــوف من ربي وأخـــشى
ظلام القـــبـــر يحطم عنفـــواني
وأخـــشى الفكر يهـــزمني جـزوعـــاً
ومـــالي حين يهـــزمني يدان
ولم أعلم مـــقـــامي عند ربي
أفي نـار الجـــحـــيم أم الجنان
ولولا أن لي أمـــلاً بعـــفـــوٍ
لأزهقـت الحـــيـــاة بلا توان
ولكنـي عـــرفت حـــدود عـــقلي
وأني في حـــدود العـــقــل وان
فـــآثرت الرضـــا وتركت روحي
علـى الآمـــال تحلم بالأمـــاني
كـذا الدنيـا شـقـاء مـسـتـمـرٌ
وخـــــوف دائم فـي كـل آن
فـسـحـقـاً للذي يرجـو بقـاءً
ويـعـلـم أنـه لا بـدَّ فـــــان
* * *

حسن أبو أحمد

قصيدتان

أحزان الزيتون الأخضر

من أنتِ؟!.. ألاحظُ سيّدتي
في عينيكِ الحزنَ الأخضرْ
زيتونٌ هذا من بلدي
أم بيدرُ أحلام يسحرْ
أم أنَّ القدسَ لها طيفٌ
يتجلّى في هذا المئزَرْ
لم أقرأ عطراً سيّدتي
من قبلُ ولم أعشق أطهرْ
أنّى يمّمتُ أرى عبَقاً
لم يخطُر في بالِ العنبرْ

هل كان أبي يختالُ هنا
ممشوقاً كالرُّمح الأسمرْ
يستعرضُ سيرة عنترةٍ
ويدغدغ أمواج الزّعترْ
فلماذا لم يدلك جسدي
بالزّيتِ ولم يسبغْ أكثرْ
ولماذا لم يغزلْ كفّي
مقلاعاً للحجَر الأنضرْ
لقد اغتالوه مخالسةً
فبكاهُ الصُّبحُ على الأبجرْ

باعتني مازنُ يا أبتي
واستعلى شانئكَ الأبترْ

سحقوا أزهارَ حديقتنا
واختالوا في جنْدِ القيصَرْ
تركوا أغصاني عاريةً
وسقوني من مرٍّ أكدرْ
فحليبُ نياقي منفيّاً
يترنَّحُ في الزّمن الأغبرْ
ويَميني ما عادت يُمنى
وشمالي حلَّ بها الأعسرْ
والقدسُ كعادتها تطهو
ماءً وحصىً كيما نخدرْ
تترقبُ فيضاً من عمَرٍ
وتهدهدُ أبناءً قُصَّرْ
يابْنَ الخطّابِ ألا عوداً
لزمانٍ كالمسْك الأذفرْ
لزمانٍ لم يلْمَسْ زهْراً
إلاّ وتأرَّجَ بالأعطَرْ
لزمانٍ لم يترك قمحي
يتلوّى في وادي خيبر
فحنيني أصبحَ إرهاباً
وندائي إرهاباً أكبَرْ
لن أنسى ما سرقوا منّي
أرياشي والزُّغَبَ الأصفرْ
بيارةُ جدّي أسمعها
تدعوني للنُّور الأزهرْ

والتينُ يُمدُّ ذراعيْه
يستقبلُ عصفوراً أسمرْ
فأنا من يافا سيِّدتي
أتقلبُ في جَمْرِ المهجرْ
عنواني حفنةُ زيتون
توقيعي من حبر الأبهرْ
أبحرتُ طويلاً لكنّي
محكومٌ بالحبِّ الأكبرْ
أنّى لنظامِ كونيٍّ
أنْ يغسلَ ذاكرةَ الزّعترْ
والشمس تلوّح خدّيه
بنشيدٍ من وادي عبقرْ

فدعي بُستاني سيِّدتي
يتوهجُ بالبلَح الأحمرْ
وخُذي ما شئتِ وَخُطّيني
عُنواناً في صدْرِ الدَّفتَرْ
قمْحاً وغماماً سيِّدتي
أقماراً بينهُما تسهرْ

تتلمّس صبحاً ورديّاً
وتُحدِّثُ عن ليْلٍ أقمرْ
شكراً لبنانِكَ يُطلعُني
لوزاً معقوداً بالسُّكرْ
يستافُ الصُّبحُ نسائمَهُ
ويصفِّقُ في نهر الكوثر
لسلامٍ قُدسيٍّ آتٍ
عربيٍّ الجوهر والمظهرْ

ساعودُ ولو كسروا عظمي
قسماً بالنَّخل وما أضمرْ
قسماً بالحقل سالقاهم
وساكتب ملحمة البيدر
لو غطّوا الشَّمس بأيديهم
واقتادوا البدر الى الخنجرْ
ساعودُ وموعدُنا يبقى
ميلادَ الفجرِ إذا كبُرْ
فلعلّي أطلعُ في الأقصى
قمراً أو زيتوناً أخضرْ

نشيد المطر

رسالة إلى سيد البيت الأبيض

يا سيّدَ البيتِ المسافرِ في المحالْ
أنا ما قطعتُ يدَ الصباحِ
ولا سفكتُ دم الغزال
الحبُّ مدرستي
وشبّاكي مسافاتُ النهارْ
ببساطة الأزهار أحيا

والفراشات المحبّة للضياءْ
ولديَّ سنبلةٌ تشيعُ الدفء
في قلب الشتاء
فلم استبحت زنابقي
ودعوت أعدائي لمملكة الجمال؟!..

يا سيّد البيت المسافر في المحالْ
أنا ما قطعتُ يدَ الصباحِ
ولا سفكتُ دمَ الغزالْ
لوني بلون الأرض
والأنهار
والشجر المضمّخ بالإباءْ
ولقد وهبتُ الياسمينَ بشاشتي
وهتفتُ للطفل الوديع
موشحاً
بالكبرياءْ
فلم اغتصبت رحيق أزهاري
وأحرقت السلال؟!!.

يا سيّد البيت المسافر في المحالْ
أنا ما قطعتُ يد الصباح
ولا سفكت دم الغزال
يافا تسافرُ في دمي
والقُدسُ تخفقُ في شرايين الضياءْ
لا ابتغي مالاً ولا قصراً
يبزُّ الناطحاتْ
أنا كل ما ابغيه كوخٌ
يرتدي بيارةً ممشوقةً بالبرتقالْ
فلم انتصرت لقاتلي
ودفعت أحلامي لذلّ الارتحال؟!!..

يا سيد البيت المسافر في المحالْ
أنا ما قطعتُ يد الصباحِ
ولا سفكت دم الغزالْ
قلمي بأجنحة البراقِ معلقٌ
ومداده نور السماء
وعلامة الترقيم
أرسمها
بزيتون تحفّزَ للقاءْ
هو من جلال الكافِ منطلقٌ
الى نون الوصالْ
فاقرأ
على اسم الله مجراها
ومرساها السلامْ
فلم اعتقلت سفينتي
وقذفت أشرعتي بأمواج الضلالْ؟

يا سيّدَ البيتِ المسافر في المحالْ
أنا ما قطعتُ يدَ الصباحِ
ولا سفكت دم الغزال
من صخرة الأقصى طلعتُ
ومن رحيق الأنبياء
لن يعطش الليمونُ في بلدي
ولن تستأصلوا بوح الغمامْ
فدمي هو المطر الهتونُ
على جناح المعصراتْ
بردى يشدُّ على يديَّ
وقاسيونُ يلملمُ الجرح العُضالْ
وغداً أزفُّ نشيد أمطاري
لزهر البرتقالْ

خيال الشاعر ؟؟

هفت الحشاشة وانتشى وجداني | فذفت بانتهـا الى اعاني
وتصاعدت في الأفق سحب دخاني | من وجعها لاحس في سلطانها
راحت تلملم من متاعبي الأسى | فوق الأديم تهزني وتراني
وتجرها صعدا بغير عنان | قد صحت فيها اكملي يا منيتي
أنا ما عرفت لها دواء ناجعا | روي دعائي خففي أشجاني
في غابر الأيام والأزمان | أنا ان سمعتك لا تمل مسامعي
الا الرياض وصدح عصفور بها | انت العزاء وسلوتي وقياني
غرد التناغم صادق الالحان | اهوي عليك اصابعي فيجيبني
وفراشة رفت تهوم في الفضا | ايقاعها بعلامة النكران؟
ما بين نسرين وغصن لبان | كم هزني الطرب الخفي وعاث بي
وجداولا ينداح فيض مياهها | رجع أتى صدرا عن الأغصان
فوق الربيع بمهجة الغيطان | حمل الرحيق الي نفحاً معبقاً
ثملى تداعبها الربابة كلما | من مائسات الفل والريحان

شرد الخيال وقد طواني مرغما … من عهنها المنثور كالحيران

والروح في بحر كما الطوفان … رسمت براعي ما تراه معبرا

نفضت جناحيها وطارت حينما … ونضت عن الابداع ثوب حران

قرب المسا بغروبه فحواني … اخذت باسباب التفكر ساعة

ما أن صعدت الى العلاء مجنحا … وتأملت في رهبة السلطان

شفق المغيب المورق النيران … بسطت روائعها الي طبيعتي

حتى عجبت لمبدع ومصور … هزت كياني روعة الاتقان

مزج اللهيب بكثرة الالوان … مدت فروعا في السماء شجيرة

فاحمر واحتقن الفضاء بوهجها … فتعاظمت بتكاثر الافنان

من ارجوان راقني فكواني … وحياتها رهن بكل تفرع

والتبر خالطه وخيط سحابة … والجذع منبتر عن الأغصان

سوداء، زينها الذي اغراني … بدأت رويدا بالتلاشي بعدما

يالوحة زرقاء كانت في السماء … حرق الجمال مشيعا جثماني

تكشفت عن صورة عن مبدع الأكوان … ونظرت حولي بينما أنا حالم

قطع من الغيم المضمخ حمرة … جنح الخيال وليته أُرداني

مزجت، فزاد تموج اللمعان … عشت السعادة لحظة بتأملي

جملت محاسنها فابهر ناظري … ورجعت أترع ذلتي وهواني

طائر على أفنان جافة

بقلم:

مها سليمان

وقف صلاح جانباً يتأمل المكان في ذلك الفندق الكبير لقد استطاع أحد أصدقائه أن يهيىء له عمل يوم واحد فقط ولما لم يكن له دراية سابقة بمثل هذه الامور فقد ترك نفسه ينقاد بسهولة للقائمين معه بالعمل قال له المشرف على العمال إذهب وأحضر لي منضدة من المخزن لم يكن يعلم بعد أين يقع هذا لكنه وبرغبه شديدة في تقديم خدماته لم تمضِ دقائق قليلة حتى كان قد أحضرها فأسرع يخبر المشرف لقد احضرت المنضدة نظر إليه هذا بجنون هتف ـ أحقاً يا للسعادة ماذا هل تريد أن أعلق لك النياشين ارتد عنه بخيبة ذهب الى حيث يقف بعض الشبان كانت الحفلة التي ستقام الليلة بمناسبة زواج أحد رجال الاعمال والتحضير لها يحتاج الى عمل كثير. لاحظ وجود امرأة شابه مصبوغة الشعر والوجه بشكل عجيب همس له أحدهم إنها زوجة المدير كان بقربها ابنتاها الصغيرتان سمعها تتحدث اليهم بالانجليزية أحس بالألم تساءل لماذا. اذا كان هدفها من ذلك تعليمهم اللغة فعليها أن تفعل ذلك في المنزل لا أن تجرح مشاعر الناس بتنكرها للغتها. أنهوا صف المناضد المستطيلة التي كان قد اقترحها المشرف ووصفوا المفارش فوقها وكل ما يلزم. اقتربت المرأة نظرت الى ما فعلوه لمدة دقيقة فلم يحظ باعجابها فطلبت منهم تغيير ذلك بإحضار مناضد مستديرة فاضطروا لتلبية طلبها رغم ما بهم من تعب، فيما هو يقوم بعمله شاهد منظراً غريباً دهش له كان رئيس العمال يقف في إحدى زوايا القاعة يدخن بينما وقف الى جانبه أحد الشبان يحمل بيده منفضة سجائر وبقي كذلك حتى أنهى تدخين سيجارته. قال لنفسه. كلما رأيت

رجلاً منتصب القامة فاعلم أن لديه إنسان آخر مجهد شديد الإنحناء. أنهى العمال إعداد الموائد. الاطباق الفارغة الملاعق الشوك السكاكين الأقداح التي كانت شديدة اللمعان حيث كان بعضهم ينفخ في القدح ثم يدعكه بالفوطة. أقبل أهل العرس وتوافد المدعوون كان عددهم كبيراً تجسد الإسراف في هذا الفرح في المال وفي التهام الطعام كانت البهجة تغمر الجميع فيما شقيق العريس وشقيقته يتنقلان بين الحضور ولم يهدأ طوال الوقت. أدخلت الخراف المحشية وبدأ العمال يتفننون في فتح زجاجات الشمبانيا. رأى صلاح وهو يذهب ويجيء أستاذاً له. في الكلية يجلس الى إحدى الموائد وبقربه زوجته الحسناء. والى مائدة اخرى كان هناك زميلاً له مع أهله رآه يشير لهم نحوه ويحدثهم عنه فأحس بالضيق لذلك. لم يكن قد تناول طعاماً منذ الظهيرة فالعمال كانوا في عمل دائب حتى لو تسنى لهم الوقت فليس هناك أي طعام خاص بهم وعمال الفندق الرئيسيون يحومون في القاعات مثل الكلاب، أخيراً حين بدأ العمال يعودون ببقايا لحم الخراف الى المطبخ مد يده واستلب قطعة وضعها في فمه فقد كان الدوار يعصف برأسه وهو على وشك السقوط. في الصباح بعد أن أعادوا كل شيء الى ما كان عليه صعد الى المستودع لتبديل ملابسه كان هناك بعض الشبان يقومون بتوضيبه سأله أحدهم ـ ماذا ستفعل هنا ـ أريد تبديل ثيابي ـ عليك أولاً أن تساعدنا في التوضيب ـ لست ملزماً امضيت الليل وأنا أعمل ـ وثب نحوه ثلاثة منهم وبدؤوا يوجهون له الضربات. تدخل البعض وأبعدوهم عنه مسح الدماء القليلة التي خرجت من فمه تذكر فيلماً رآه منذ مدة تدور أحداثه في مشفى للمجانين حدّث نفسه لا فرق فلا وجود للعقل في هذا المكان. عاد الى البيت بعد أن أخذ أجره نام عدة ساعات عندما أفاق سمع ضجة في الحجرة المجاورة وصوت ارتطام الملاعق بالاطباق فأدرك أن إخوته قد عادوا من مدارسهم. أحس أنه يختنق وأن عليه أن يخرج مشى طويلاً لمح في إحدى السيارات الفارهة وكانت تقف جانباً وجهاً مألوفاً. عرفه عليه يوماً زميل له. كان يجلس وراء المقود. حياه فرد التحية باقتضاب. تجاهل هو الأمر سأل ـ كيف الحال هل رأيت عصام مؤخراً. لم يرد الشاب إنما بقي ينظر أمامه دون مبالاة. أدرك صلاح أنه لا يرغب في الحديث معه.

لا بأس إنه إبن احدى الشخصيات الهامة. مضى دون أن ينطق بكلمة شتمه في أعماقه «حقير» واتسعت الكلمة لتشمل المكان والفضاء من حوله.

وجد قدماه تقودانه الى أحد الأحياء فكر أن له صديقاً يقيم هنا لم يره منذ مدة تردد في الذهاب اليه هل من المناسب ان يزوره في مثل هذا الوقت في الاسبوع الماضي عندما زار صديقاً آخر له سمع والدة ذلك الشاب تسأله بصوت غاضب حين غادر الغرفة لأمر ما. هل خلع صديقك حذاءه قرب الباب أم لا آكد لها ولدها أنه قد فعل ذلك. قرر الا يدع هذه الأشياء تمنعه عن أصدقائه خاصة انه خسر في صيف العام الماضي صديقاً قديماً. كان خلافهما على أمور يمكن أن يقال عنها أنها قومية لم يكن يريد أن يفهم بعد كل ما حدث في الأعوام الماضية بقي على ضلاله وأفكاره الخاطئة فتخلى عنه نبذة لأنه قد مل وفاض به. وصل الى منزل رفيقه رحب به وأخذ في معاتبته لابتعاده عنه وقلة زياراته أبدى صلاح أسفه واعتذاره لذلك. لاحظ في بيتهم حركة غير عادية عللها

صديقه أن لديهم بعض الضيوف من أصدقاء أبيه وسيتناولون عندهم الغداء، أقسم عليه أن يبقى ليشاركهم طعامهم لم يرَ بداً من البقاء، وجد نفسه يجلس الى المائدة التي هيئت في فناء البيت للاستمتاع بشمس الخريف الدافئة ومن حوله مجموعة من الرجال جاوز معظمهم سن الخمسين وكان يبدو عليهم أنهم من ذوي الخبره في تناول الطعام يشهد على ذلك كروشهم البارزة.

تصاعدت روائح المأكولات اللذيذة ولم تكد الأيدي تمتد حتى قرع الجرس كان القادم قريب لأهل البيت. هلل الحضور لمرآه ودعوه ليجلس بينهم ـ لقد تناولت غذائي قبل قليل لم أكن أعلم أن لديكم وليمه. جلس ليأكل فيما هو يتجشأ ويكاد الطعام يخرج من فمه. أحس صلاح بالقرف منه كاد يتراجع الى الخلف لكن .. لم يكن ذلك من أداب الضيافة فبقي جالساً حتى انهوا طعامهم فوقف يودع صديقه وغادر نظر في ساعته لم تكن قد بلغت الرابعة بعد مشى على غير هدى ولم يزايله بعد إحساسه بالتعاسة دخل حديقة رآها أمامه اختار مقعداً في أحد الأركان وأجال بصره من حوله كان هناك الكثير من الرواد تخللت وجهه وعنقه بعض النسمات أحس بالراحة رآه ما أجمل الطبيعة ما أجمل عناق هذه الأنسام. بدأ بعض الاطفال يلهون بالقرب منه فسر لمرآهم وسحرته براءتهم. ما أجملهم إنهم ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وأقوياء بحيث يستولون على قلوبنا ويحكموها. نظر الى وجناتهم الناعمة المتورده.

وثيابهم الجديدة النظيفة ـ يبدو أن أمهاتهم ألبسنهم أفضل ما لديهم بادلوه ابتسامته وأخذوا يتراكضون حول مقعده غير مبالين بما يحدث لهم حين اصطدامهم مع بعض وسقوطهم على الأرض كان يضحك من قلبه ـ آه لقد اتسخت الكنزة الجميلة، وهذا أيضاً سقط وتمزق بنطاله ناحية ركبتيه. ستغضب أمك أشد الغضب حين تراك ملَّ الأطفال في النهاية وغادروه يتراكضون. أغمض عينيه وجميع حواسه باستثناء استمتاعه بالأنسام وهي تتخلل صدره، لم يدر كم مضى عليه حين أفاق كانت الشمس قد غابت وأصبح الجو أكثر برودة. ألقى نظره حوله. كان ثمة شاب وشابة يسيران الهوينا بالقرب منه فيما الحديقة باتت شبه خاليه. لم يكن من عادته التدخل في شؤون الغير إلا أن حالته النفسية السيئة جعلته يتساءل أهما متحابان وهل هناك حب حقيقي بعد. أصبحا أكثر قرباً بقي يختلس النظر إليهما كانت الفتاة تتكلم بهمس وعيناها في الأرض والشاب يستمع بانتباه كلي حين أصبح أمامه رمقه من خلف نظارته ثم عاود الاستماع الى فتاته.

بقي ينظر اليهما وهما يبتعدان يبدو أن مرآهما حرك شجونه. فكر إن الفتاة تبدو لطيفة ورفيقها كذلك هذه مخلوقات جديرة بالحياة وليس الآخرون، تذكر زميلة له صارحته يوماً بحبها لم تتكلم بلسانها لكن تحدثت عيناها. كان فيهما حب وترقب. يومها فوجيء ولم يعرف كيف يتصرف تجاه الأمر. لم يرها في الأيام اللاحقة علم فيما بعد وهو يتتبع أخبارها بحذر أنها تصور المحاضرات من زميلاتها. تساءل.. بألم، لم أحرجت نفسها معه على هذا الشكل. قال لنفسه إن الحب قد يخلصه من كل ما به فهل يذهب الى زميلته ويدعي أنه يحبها لكن أي حب هذا وهو خاوي الوفاض لا مال ولا عمل. إنه شاب يحترم زميلاته ولا يرغب في خداعهن، عليه أن يكد ويجتهد لتحسين ظروفه وما عليه الا الصبر. قام من مكانه شعر أن ما به من غيظ وحنق قد تبدد وأن بإمكانه العودة الى منزله.

صراع

بقلم:
عبد الله أحمد باقازي

«يموت لو تزوج».. هكذا قال الطبيب.. واضاف «ابنك مصاب بتضخم في القلب ويحتاج الى راحة جسدية ونفسية، والزواج أكبر خطر عليه».. وأغمض الرجل عينيه في قلق، ومرت على حواسه موجة الصراع العنيفة فانتفض في داخله الاضطراب، وفتح عينيه ثانية: «حاولتأن أؤكد له أن قلبه مصاب بالتضخم، وأن عليه أن يمتثل لارشاد الطبيب ويبتعد عن الزواج، ولكني تذكرت أني لن أرى بهذا حياة ثالثة لي في أحفادي.. أحسست بأني اجمع كل انفاسي واطفئ بها الامنية الغالية التي ظل مشعلها يتراقص في نفسي بأن ارى لي احفادا يعبرون بي الحياة الى احشاء الزمن.. وكان ان أصر هو من جانبه على الزواج لست ادري هل جاء ذلك وفقا للأمنية التي في نفسي أواصراراً من جانبه على الزواج..؟؟.. ما اعلمه اني لم افصح لله له عن امنيتي هذه رغم ان نظراتي تنثرها على وجهه كلما نظرت اليه».. ويغمض الرجل عينيه للمرة الثانية، وترتعش على رموشه ذرات الفتور، وتتمدد صبغة الاسى على وجهه ويفتح عينيه لينسى فتك الصراع بداخله.. «لقد كان علي وحيدي الذي رأيت فيه .. الحياة.. والشمس.. والامل.. كان الوجود الذي سعيت الى صنعه طوال حياتي، وكأي اب انتظرت اللحظة التي يتزوج فيها لأرى ان وجودي من خلاله يمتد عبر شريط الزمن الطويل، ولم أكن اعلم ان عليا يحمل الحياة بين ضلوعه عضلة لاهة تدفق الحياة بصعوبة. ساعتها كنت خائفاً ان افقده لو تزوج.. وكنت خائفاً ـ ايضاً ـ ان يموت ولم ار له احفادا وفكرت ان اطرح عليه القضية.. انه الذي يمتلكها اكثر منا جميعا ويستطيع ان يحدد

موقفه منها قلت له يومها: بني.. ان الزواج فخ ذهبي ينصبه لك الموت.. ولا أدري يومها كيف عبرت هذه الجملة على مجرى شعوري ولكني ظللت بعدها معذبا بالصراع المحرق.. ربما لا يموت اذا تزوج..! ربما أنجب اطفالاً! ولكنه.. ربما يسقط كأي وردة ذابلة امتص الشمس والهواء عصارتها.. لا.. لا .. لم أعد أحتمل.. وانفجر الصراع بدويه الهائل في داخله وكسا مشاعره بشحنات اضطراب لاذعة، وتناثرت المأساة على وجهه المتعب الشاحب..

كانت «فاطمة» تحس هي الاخرى بالصراع لهبا يذيب مشاعرها ويقطرها سائلا دبقا من «الذهول».. «يموت».. وتستطيل الكلمةعبر ابعاد الحس، ويتوالد عنها صدى يحضتنه سمعها.. «ابنى حبيبي لو تزوج.. كيف؟!!.. هل أجرمت في حقه؟.. يعثر السؤال تكاثف احاسيسها المتعبة.. «لقد شجعته على الزواج وقلت له: الطبيب مخطىء يا بني يجب ان تتزوج لتنجب ابناء يدعونني: «يا جدة».. ألا تريد ان تحقق حياتي - يا علي - بزواجك..؟؟ ثق يا علي ان الزواج سيشفيك من داء القلب..» ووقفت بعد ذلك لا شهد الفصل المروع.. تزوج علي ولكن الذبول يزداد على جسمه مع الأيام، وخفت ان يذوب في يوم ما وافقده الى الأبد.. ولم أجد عندها الا الندم بلسما اسكبه على الجرح الذي صنعته في داخلي.. احسست عندها انني اردت له الحياة.. وذهبت اليه .. ورأيت يومها على وجهه ظلال الشحوب الصفراء تزحف بوضوح وقلت له وأنا أحاول ان اتلمس بقايا الحياة في عينيه: بني ألا تشعر بأنك قد اخطأت حين خالفت نصح الطبيب وتزوجت.. الا تشعر أن «الموت» سيلوث دمك كله لو ظللت متزوجاً؟! طلق زوجتك يا علي.. لم أعد اريد لك طفالا.. أريد فقط أن أراك تصنع الحياة في عروقي .. بنحولك ولهاث قلبك المتعب.. لقد صنعناك وجودا لنا يا علي ولم نعد نود ان نرى امتدادا لهذا الوجود لاننا نخاف ان نفتقد ذلك الوجود عندما تموت - لا سمح الله - في ويم ما .. علي .. بدد سحاب القلق الاسود من نفسي وطلق زوجتك.. كنت لمظها قد انخرطت في شعور غريب.. عيناي اتسعتا حتى أحسست اني قد صرفت كل الرؤية وكل ضوء الحدقات.. ووجهي حمل كل ألوان الدهشة المتناقضة.. وبدون ان يقول لي شيئاً اندفع - وفمه يتحرك ضمن اطار بسمة متصنعة - الى رأس ويدي وقبلهما - و تركته وعدت الى نفسي لا غوص في الصراع الملتهب - من جديد - .. كيف اطلب تطليق زوجته وانا احمل أمنية العمر في جوانحي أن أرى لي أحفادا .. يحملون وجودي في رحلة الزمن.. كم سأكون سعيدة بوجودي وجودي حين يكون لي احفاد.. ولكنه ربما يذوي ويموت في أية لحظة.. الويل لي .. ان اللعبة جد خطرة.. ما أتعس الذين يتأرجحون بين تيارين متعاكسين انهم لا يدفعون الا الصراع ضريبة لهذا التأرجح.. ونسجت الكآبة قناعها الباهت على وجه المرأة والصراع يصهر انسجتها من الداخل!

كانت «لطيفة» في المطبخ تتأمل اصابعها الناحلة وتيار الشرود يمضي بها وهي تحس الصراع يتفجر ذرات لهب لاذعة في شرايينها.. انها تحب «زوجها» علي.. لكن نحوله ولهاثه ، وذبوله يهز الحياة في اعماقها.. سألته عن مرضه فقال: انه ضعف عام.. وتزكم العقاقير الطبية أنفها وتيقظها على حقيقة جارحة.. هل زوجها مصاب بمرض خطير يخفيه عنها؟؟.. هل

سيموت؟؟.. انها تحبه وهذا يحفزها للتضحية حتى آخر لحظة للعطاء حتى آخر قطرة..»

وفرقعت أصابعها في قلق، وانغرزت سبابتها في فمها، والذهول ينساب عبر وجودها ويجرف مشاعرها داخل تياره دفعةواحدة .. «وعمي ابو علي .. وزوجته فاطمه لماذا تصر نظراتهما الملتهبة على تجريدي من هدوئي ومرحي.. ماذا صنعت لهما؟؟.. ماذا صنعت لعلي؟؟ .. هل أنا سبب في مرضه؟.. ليتني لم أتزوج؟!!.

وعضت على سبابتها الناحلة، وتسايل الندم من اشداقها.. «لكن الزواج خلق لي ثقتي من نفسي كأنثى.. لم أحس انني انثى الا بعدالزواج .. هناك أمسكت بقضيتي.. كأنثى في هذه الحياة.. وانسكبت معالم زوجها في داخلها.. «هذا الوجه المثلث المجرد من رحيق النضارة كان «نصيبي» .. علي .. هذا الانسان الذي اعطى لنبضاتي ايقاع الاحساس بالانوثة.. هذا الوجه المثلث الناحل هل سيطفىء يوماً ما؟!

يا الهي لماذا أفكر بهذه الطريقة.. ؟! لماذا يشدني هذا الاحساس الى القلق دوماً.. «يموت» يا للصراع القاسي.. أما أنا فسابقى في ظمأ.. أنثى لا تحمل ثقتها بانوثتها في هذه الحياة.. واحست بذرات الصراع ـ من جديد ـ تتفجر في دمها .. وامسكت بجبهتها، واغمضت عينيها ثم اطلقت زفرة حارة، وأطرقت في وجوم!

استلقى «علي» على فراشه، واخذ ذهنه يجمع أبعاد السؤال القديم. «هل أنا حقا اواجه الموت من اللحظة التي تزوجت فيها؟؟.. هل بدأ الموت يلوث دمي ـ كما قالت امي .. لقد قال الطبيب «ان قلبك مصاب بالتضخم».. ويجب ان تبتعد عن الزواج.. وشعرت ان قلبي متضخم بالفعل وانه سينفجر في داخلي يوم ما بكل المشاعر الحيرى التي يحملها.. الانفجار نهاية لكل تضخم.. كان عليّ ان أعيش بلا زواج لكي أضمن لرئتي احتياطياً اكبر من اكسجين الحياة...

ان اضمن لهذه العضلة اللاهثة بالنبض الشايخ وقتاً أطول لتصنع دقاتها التعبة.. «الزواج فخ ذهبي ينصبه لك الموت».. هكذا قال ابي .. وحذرني الكثيرون من ذلك.. الطبيب كان أشدهم ذلك الرجل الذي قالوا انه يفهم عن قضيتي اكثر من «الموت».. وتهشمت معالم الحياة المشرقة في عينيه.. لا .. لا يمكن أن أكون سائراً نحو فك الموت.. واشتعل الصراع في عروقه.. هل أطلق زوجتي لا ضمن اكبر عدد من الساعات في الحياة.. مع كل ذلك يظل الموت حتمية ازلية لنهاية الانفاس.. يظل حقيقة تصرع البشر في نهاية «المشوار».. كل العيون ترى سهم الموت وهو يخترق الحياة عبر الزمن، لكنني لا افكر في هذا السهم ولا في الحياة التي يخترقها.. افكر في وجودي كرجل.. في ثقتي بنفسي كرجل.. وتكاثفت معالم زوجته في ذهنه: «لطيفة.. انت وحدك الذي اعاد لي الثقة بنفسي كرجل من خلال لحظات الحياة معك، من خلال نظراتك الوديعة، من خلال وهج لمساتك، من خلال بسماتك الهادئة التي تتقطر في جوفي رحيقا عذبا.. مخطئون حين أرادوا لي ان أكون بلا زواج لكي اشعر بمرور الحياة على عروقي، وحتى لا يتسرب الموت سما متخثرا داخل هذه العروق.. ان الموت نهاية .. والحياة ذاتها ليست وجودا انها «شعور بالزمن» اما الوجود فهو احساسي بقيمتي وثقتي كرجل في هذه الحياة التي امتلكها بزواجي.. اما «الموت».. واحس باللفظ يذر الرعب في أوصاله.. يا إلهي.. حتى الآن.. الى متى أفكر في هذه القضية.. يا للصراع المؤلم وشدت يداه شعر رأسه.. والصراع ما يزال مشتعلا في دمه..!!

إبحار في ذاكرة إنسان

بقلم:
محمد الشقحاء

كانت الرسالة تقول:

(حين تفصل المسافات بين الانسان والانسان يتحول كل ما في الاعماق الى كتلة من الشوق والحنين وترتسم صور أكثر جمالاً مضافاً اليها دفقة الشعور الجم الذي ينبت واحة ظليلة في صحراء العمر، أما اذا قصرت هذه المسافات وتضاءلت واضمحلت بين انسانين التقيا على أرض المحبة والصداقة.. الخ..

* * *

الساعة تشير الى العاشرة والنصف مساء وأنا في طريقي الى المقهى الذي يقبع على تلة تبعد عن المدينة خمس عشرة دقيقة، اعتدت الهرب اليه منذ عشرين يوماً مع أوراقي الصحف التي استطعت الحصول عليها من مكتبة الحي ولا شيء آخر سوى الجراك الشيشة الذي ينفث الدخان الأبيض في حديث أزلي مشبع بصورة الحياة القاتمة التي أخذت تنسحب مع الزمان في غفلة من الاحداث الرتيبة التي لا لون لها ولا حياة..

ـ انني.. أبحث فيك عن السعادة

قالت.. فداء ذلك ثم انفلتت هاربة.. كانت الطريق طويلة نهايتها غير مرئية رغم الاضواء الصفراء المتدلية من السماء في عفوية غير محببة سرقت من الأطفال المتكومين على الارصفة ذوي السلاسل الذهبية والسيارات الفارهة. قهقهاتهم المصطنعة وبحثهم في شبق عن عيون نجلاء متلصصة من خلف البراقع التي

كانت نشازاً فوق أجسام فارعة الطول.. ترتدي غلالات شفافة.

* * *

انتهيت من قراءة آخر سطر في المجموعة القصصية التي وصلتني حديثاً مجتازة جميع الاسوار لتقول لي ان هناك عالماً يتأمل النساء في شبق ويبحث عن الحياة والأرض.. عبر لفافة حشيش اخذ دخانها يرتع في جدل داخل غرفة صغيرة ملطخة بشعارات مزيفة عن القومية.. وثوار العالم الثالث.. صور كثيرة متناثرة كانت تتزاحم على الجدران وفوق الأرضية وتحت السقف الذي بدت فيه آثار الامطار وتكلس أبيض اتخذت منه العناكب والذباب مكاناً لقانوراتها المتيبسة منذ ألف عام قام التاريخ بتسجيله قبل ان يكون الطوفان الذي ورد ذكره في الكتب السماوية بأشكال مختلفة.

* * *

البول يحاصرني.. وآخر ورقة في مجموعة القصص تتلاشى أمام ناظري ونادل المقهى الذي يقف امام وافدين جديدين يحبب لي طلب تغيير رأس الشيشة للمرة الثالثة، انه العالم الثالث هل احترق معه.. الساعة تشير الى الثانية عشرة موعد عودتي الى الدار وتسلقي صنم الوهم الذي زرعه ضجيج الشارع.. وصوت التلفزيون المرتفع.. وعراك أطفالي مع أبناء شقيقتي والزوار الذين تمتلىء بهم صالة الاستقبال. فارفع كفي الى رأسي محاولاً اغلاق سمعي في محاولة استسلام بدائية حتى لا أنفعل وقد احتقن وجهي بالدم.. البول يحاصرني.. ونادل المقهى يختفي. لأنهض من مقعد الشريط الذي أفضل الجلوس به كل مساء منذ هربي.

* * *

قبل ان تطل أنوار المدينة الصفراء. أوقفت عربتي جانباً وترجلت منها وتوغلت بعيداً في الظلام لأجلس حتى أتبول..

احتبست ضحكة بلهاء في داخلي وأنا أنهض لأعود لعربتي التي تركت محركها مداراً. وتلفت حولي.. كانت الأضواء الصفراء المدلاة من السماء في بلاهة تطل من بعيد.. وفداء مازالت تسير.. وتذكرتها انها تبحث من خلالي عن السعادة..

وتذكرت أنني انسان.. لا يرتدي بذلة داكنة.. أو يفضل شراء المسابح العاجية ذات الرائحة المسكرة أو ارتداء عباءة الوبر الصفراء الرقيقة.. فأطفأت مصابيح العربية الأمامية وتجاوزتها سارقاً النظر اليها علها لاتعرف عربتي.. فتلوح لي بيدها..

- من أنت..؟

- انسان.

- من أين أنت قادم..

من هناك وأشرت الى الظلام الذي كان السبب في وقوفي في مخفر

الشـرطـة.. لقـد تجـاوزت عـربـة رجـال الشرطة.. شك أفرادها في هويتي عندما تجـاوزتهم وأنا مطفىء المصـابيـح.. واذا بعربة المرور تشعل مصباحها ذات الالوان المتعددة المنصوب فوق سقفها تجتازني ونداء ينبـعث من داخلهـا يدعـوني الى الوقوف..والترجل..

* * *

صادرت البذلات الرمادية كل ما في عـربتي من أوراق.. ألقاها جندي صغير الجسم تنم ملامحه على انه لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر وتدل حركاته على انه جديد في العمل.. على طاولة مدير المخفر.. فأطلت مجموعة القصص من بين الأوراق فأخذ يقلبها نو النجمات الثلاث في بلاهة واذا بفـداء تطل من احـدى الصفحات..

- سيـدي كنت أبحث من خلاله عن السعادة فتجاوزني..

- لقد تابعناه..

-....

- كان عبوره الى داخل المدينة مريباً

والتفت فداء نحوي.. غرست عينيها النجلاوين في لحمي ثم تطلعت الى قدميّ الحافيتين فانحنت تلعقهما.. كان الورم بادياً في أصابعي ومؤخرة قدميّ.. ثم وقفت وقد اغرورقت مقلتاها النجلاوان بالدمـوع لأول مـرة كـانت هذه اللحظة سكرى بالفرح لوجودي بين يديها.

ولكن صوت قدوم مخالفين آخرين خنق كل شيء. اختـفت فـداء وتم اغـلاق المحضر الذي تم فتحه لي كزائر لأول مرة لقسم الشرطة ليصبح ملفاً متكلساً يتراكم عليه الغبار..

-تفضل ..

- الى أين..

- الى داركم

-وأوراقي..؟

-سوف تحفظ لدينا

-وفداء..

- انها ضمن هذه الأوراق..

* * *

ارتديت حذائي .. وأنا أدخل عربتي .. واشـعلت الانوار واخـذت اتجـول في المدينة ابحث عن داري القابعة في زاوية الاهمال فلم اعثر عليها.. كان هناك شبح يرتدي بالطو أصفر يجتاز الطريق..

- هل تعرف دارنا..

- في أي شارع تقع..

واخـذت ابحث في ذاكـرتي عن اسم الشـارع أو رقـمـه فلم أجد شـيـئـاً سـوى الفراغ الذي تحول الى اجزاء اخذت تتناثر حولي.. اطلق الرجل صافرته بقوة اكثر من مـرة وتكومت حـولي عـربات مـجـهـولة الالوان اخذتني الى مكان لا ادري أين هو.

ولكن (تذكرت أنني على غير المعتاد. نسيت عربتي ومحركها مدار وأبوابها مشرعة وأنوارها تعكر الظلام تبحث عن من يأخذها الى مكان.. حتى عودتي)

رخصة الفراديسي

بقلم:
محمود الأحدب

دمشق.. عام /١٧٧٨/م.

في ذلك العام تقدم أبو مروان الفراديسي بطلب رخصة لبناء داره على ضفة ساقية من نهر بانياس المتفرع عن نهر بردى.. الى «بلدية الشام المحروسة».. حولت الرخصة الى «معاون ناظر العمار» الذي سأل ابي مروان بعد تقليب وثائق رخصته ودراستها..: هل تقدمت بطلب ترخيص سابق؟

أبو مروان: أبداً.

معاون ناظر العمار: هل تأكدت من أن عقارك غير خاضع للقانون /٧٠/ سبعين..؟

أبو مروان: وما هو القانون/٧٠/؟ أفدني يرحمك الله.

معاون ناظر العمار: القانون /٧٠/ ياسيدي هو الذي منع اعمار العقارات او اجزاء العقارات التي يمكن ان تكون منتزهاً «للسيرنجية» من أهل البلد فلا يحرموا بالتالي من «شم الهوا».

أبو مروان: لا يا «بيك» عقاري غير مشمول بالقانون /٧٠/ «وما في عرق أخضر»!!.

معاون ناظر العمار: مع ذلك أرى أن رخصتك ما تزال مرفوضة من حيث الشكل، فعقارك يا أبا مروان مرتفق بحق

مرور أهالي «جوبر» و«عين ترما» من أجل مراقبة النهر يوم سقاية الأرض يوم «العدان» وما بتمشي الرخصة الا بترقين حق الارتفاق هذا لدى «الطابو».

أبو مروان: أي نعم.. «هي جديدة علينا» .. دخلك «ما لها تخريجة»؟

معاون ناظر العمار: أبداً.. هناك تعاميم بهذا الخصوص.

أبو مروان: والله هذا مستحيل.. مستحيل لن أترك الساقية «وكرمال عين أهل جوبر وعين ترما» يا سيدي على راسي «يقول احدهم يا الله.. دستور» ويدخل البيت، ويشوف الساقية وحبة مسك» وهذا الامر ملحوظ في الفقرة /../ من المادة /../ من القرار /../ لعام ١٧٤٥ المعدّل بالقرار رقم /../ لعام ١٧٦٥!!.. بعد ذلك يا سيدي هذه الساقية لا بد من أن تمر بداري احول فرعاً منها الى البحرة التي ستتوسط الدار فتشيع فيها رطوبة منعشة ناهيك عن حاجتنا الى الشرب، وحاجة «الحريم» لتلك الساقية في اعمال الطبخ والغسيل ونظافة الدار وتمرير ما بحوزة أم العيال من مواعين مستعارة الى الجيران عبر تلك الساقية.

هز ناظر العمار رأسه مبدياً قناعته بحجة ابي مروان وقبل رخصته من حيث الشكل وقام بتحويلها الى «ناظر الدراسة».

ومضت ايام.. ولدى مراجعة ابي مروان ناظر الدراسة فوجىء بملاحظاته على الرخصة فقال له دخيلك يا أفندي تعال نتفاهم.

أبو مروان: يا أخي لقد قلبت مخطط بيتي رأساً على عقب.

ناظر الدراسة: انه نظام البناء يا أبا مروان أما سمعت به لقد صدر حديثاً عن «مكتب المحروسة التنفيذي» وكما ترى أحاول دراسة رخصتك حسب ذلك النظام وها قد سجلت ملاحظاتي: لا يحق لك أخذ بروز تزييني على حارة عرضها (٢,٥)م!

أبو مروان: يا سيدنا هذا البروز الذي ذكرت إما أن يستعمل «يوك» معلومك لوضع الفرش واللحف والوسائد نهاراً بعد طيها.. او ان يكون مشربية من خص خشبي للتخفيف من وهج الشمس كما تساعد على سترة أهل البيت الله يستر عليك.

ناظر الدراسة: طيب.. ما هذا «المنور» الكبير الذي يتجاوز بكثير المساحة المفروضة في منهاج الوجائب بمنطقتك العمرانية؟

أبو مروان: انه فسحة سماوية لا

منور أو «أرض ديار» سمها ما شئت ستنشّط جو البيت.. وستفتح عليها نوافذ الغرف.. وستتوسطها بحيرة بنافورة دفاقة وسيكون فيها أشجار الليمون والكباد وعريشة العنب البلدي تتدلى عناقيدها كالثريات يا أفندي!! ستكون هذه الدار جنتي.. جنتي داخل بيتي أتمتع بها متى أشاء على الهيئة التي أشاء.. أنا لا احتاج الى حديقة عامة في الشام كل بيت له حديقته أما حديقة الشام العامة فهي غوطتها الغناء.. لذلك فانا متمسك بأرض الدار في مخطط داري.. يا أفندي ستكون جنة صغيرة يعطرها الياسمين والجوري وتطرزها ازهار القرنفل والبيلسان.. وهنا.. اطرق ناظر الدراسة ملياً وتصور ما ستكون عليه دار ذلك الرجل فوافق على وجود «أرض ديار» في مخطط العقار.. الا انه أردف متسائلاً:

يا أبا مروان ما هو منسوب الدخول؟

أبو مروان: انه يوافق منسوب الحارة او قد يرتفع بمقدار درجتين..

ناظر الدراسة: لا يمكن هذا .. يجب تثبيت منسوب الدخول على الرخصة.. ثم .. ثم يا أبا مروان لديك طابق ـ راجع ـ ثان.

أبو مروان: هذا الطابق الثاني.. نعم.. راجع يحتوي على علّيات نسكنها شتاءً يا سيدي وماذا لديك أيضاً.. ما كنت أتوقع ان الرخصة تستحق كل هذا الحوار!!

ناظر الدراسة: طوّل بالك.. يجب ان تعرف ان نوافذ العلّيات تفتح على ارتفاع /٢,٥/م من سقف الأرضي حتى لا تكشف الجوار.

أبو مروان: نوافذ العلّيات يا سيدي مفتوحة على ارض الدار «شو ما في ناموس بالبلد»؟

تململ أبو مروان من نقاش ناظر الدراسة وضاق ذرعاً بملاحظاته المتلاحقة على مخططات الرخصة حتى بدا له أنه لن يتمكن من «عمار» داره على النحو الذي يريد فما كان منه الا ان قال لناظر الدراسة:

انظر يا أفندي سأبين لك ما في رخصتي:

هذا «الليوان» المتوضع قبالة البحرة بين القاعتين الكبيرتين ضروري جداً سأقضي به مع عائلتي صباحات جميلة وأمسيات اجمل.. كما يمكن ان أقيل فيه من الظهيرة في الصيف لأنه «شمالي» ورطب.

أما القاعتان.. فاحداهما للضيوف والاخرى منامة.

وهناك غرف «مربعات» تحيط بارض الدار كل «مربع» لولد من أولادي مع زوجته وهذا المطبخ كما ترى واسع و«شرح» الحق به «داكونة» ومستودع للمونة وخوابي الزيت وقدور الطبخ.. وهذه .. كفاك هذا الشرح يا أفندي.. السلام عليكم!! باذنك.. سأبني بيتاً دمشقياً «يلبي راحتي»!

فبادره ناظر الدراسة مهدئاً..: طوّل بالك عمي أبو مروان سأساعدك في ابلاغ وجهة نظرك الى اولي الامر...

حوّل ناظر الدراسة ملاحظاته واقترحات أبي مروان الى ناظر العمار الذي حولها بدوره الى «اللجنة الفنية» للمحروسة.. بينما ذهب ابو مروان حاملاً رسومه وعمّر داره كما أراد.. وعاش سعيداً في امارته الخاصة التي تضم أولاده و«كنّاته»..

ومر على دار أبي مروان قرنين من الزمان تناوب على سكناها أحفاد الفراديسي وأحفاد أحفاده كانت تلك الدار «شاهدة على قرنين» من الزمان ترقب احوال البلاد والعباد.. احوال دمشق التي بدأت من نهاية القرن المنصرم تتوسع وتستوعب .. وما ان يطل القرن العشرون حتى تضيع «دمشق القديمة» وسط التوسع الخطير الذي التهم خضرة المدينة ورشف معظم ماء كأس الشام.. ودفن تحت أقبية الكتل الاسمنتية المفرنجة حارات بأكملها.. مع أبنيتها الحلوة.. مع مقاهيها.. مع سيلان المياه المتناثرة فيها.. وخنق ذلك التوسع تحت تلك الاقبية عطر الياسمين البلدي مع صوت بائع «العبوب» مع صوت شاد ينشد القرب... القرب الى الله القادر.. أو الحبيب الهاجر. وتوى بيت أبي مروان بين الأبنية متوكئاً على نفسه.. متألما من عاديات الزمان وأهله الذين على شاكلته.. فقد أصبح ذلك البيت نشازاً في سيمفونية البشاعة الاسمنتية المحيطة وبات على من تبقى من سلالة ابو مروان ان يهدموه ويعمروه حسب منهاج وجانب منطقتهم العمرانية..

ومن جديد تقدموا برخصة الى محافظة دمشق!

ثم حولت الرخصة الى مهندس الدراسة!

وعاد الحوار بين مهندس الدراسة والمهندس واضع رخصة آل الفراديسي!

وأبدى مهندس الدراسة ملاحظاته!

وأبدى واضع المشروع اقتراحاته!

ومن جديد حوّلت اقتراحات ذلك الاخير الى اللجنة الفنية!!

وما زال أحفاد الفراديسي ينتظرون؟؟!!!